

## الباب الثامن والثلاثون

### عصر الخيال

١١٠٠ - ١٣٠٠

### الفضل الأول

#### إحياء اللغة اللاتينية

كل عصر في حياة العالم عصر خيال ، لأن الناس لا يستطيعون أن يعيشوا بالخبز وحده ، والخيال عماد الحياة ، ولعل القرنين الثاني عشر والثالث عشر من تاريخ أوروبا كانا إلى حد قليل أبعد خيالا من معظم العصور الأخرى . ذلك أن هذين القرنين لم يرثا جميع المخلوقات الخفية التي ابتدعها خيال أوروبا الوثاب فحسب ، بل قبلا الملحمة المسيحية بكل ما فيها من جمال الخيال ورهبته ، واتخذوا الحب والحرب فناً وديناً ؛ وشهد هذان القرنان الحروب الصليبية وجاءا بمئات القصص والعجائب من بلاد الشرق ، وكتبوا في واقع الأمر أطول القصص الخيالية المعروفة في التاريخ كله .

وكان مما ساعد على ازدهار الأدب في هذين القرنين ازدياد الثروة ، والفراغ ، والأدب غير الديني ، ونشأة المدن والطبقة الوسطى ، وارتفاع شأن المرأة في الدين ، ونظام الفروسية . ولما تضاعف عدد المدارس بهر شيشرون ، وفرجيل ، وهوراس ، وأوفيد ، وليفى ، وسالست ، ولوكان ، وسنكا ، واستاتيوس ، وجوفنال ، وكونتليان ، وسيونوتيوس ، وأبوليوس ، وسيدونيوس ، وحتى مارييتال وبيرونيوس

السفيهان المضحشان ، بهر هؤلاء بفهم وعالمهم الغريب كثيراً من ملاجى  
الأساتذة والأديرة المنعزلة عن العالم وتسربا فى بعض البلاد إلى قصور  
الأعيان ، واختلست الأرواح المسيحية من جيروم إلى الكوين ، إلى هلواز ،  
وهيدلبيرت ، دقائق من أوقات صلواتهم لينشدوا أغانى الإنياذة وهم  
صامتون . وكانت جامعة أورليان تعز اعزازاً خاصاً قوياً بأداب رومة  
الوثنية ، حتى شكوا أحد المتزمطين وهو مرتاع وجل قائل إن الآلهة القدامى ،  
لا المسيح أو مريم ، هى التى تعبد فيها . وكاد القرن الثانى عشر يصبح « عصر  
أوقد » ؛ فقد أنزل فرجيل عن العرش الذى رفعه إليه الكوين حتى جعله  
شاعر بلاط شارلمان ؛ وكان الرهبان ، والسيدات ، « والعلماء الجائلون »  
على السواء يقرأون بنشوة وابتهاج كتب النجوروت ، والبروبيرات ، وفى  
الخب . وفى وسعنا أن نغفو عن كثير من أسباب اللهو المباح عند الرهبان  
الذين أحبوا هذه الكتب الملعونة ، وحفظوها من الضياع ، ولقنوها بإخلاص  
ووفاء إلى الشبان المتبرمين الشاكرين .

ونشأت من هذه الدراسات القديمة لغة لاتينية خاصة بالعصور الوسطى ،  
كان فيها من التنوع وأسباب المتعة ما يعد من أعظم المفاجآت السارة فى  
الكشوف الأدبية . مثال ذلك أن القديس برنار الذى لم يكن يعتد إلا قليلا  
بالمزايا العقلية ، كتب رسائل تفيض بالحب الرقيق ، والقدح الفصيح ، واللغة  
اللاتينية الممتازة ؛ وقد احتفظت عظة بطرس دميان ، وبرنار ، وأبلار ،  
وبرثولد الرچنزيرجى للغة اللاتينية بقوتها وحيويتها .

وكتب المؤرخون الإخباريون فى الأديرة بلغة لاتينية فظيعة ؛ ولكنهم لم  
يكونوا يدعون أنهم يكتبون كتابة تشبع حاسة الجمال لدى القراء . بل كانوا  
يسجلون أولانشارة أديرتهم وتاريخها — انتخباتها ، ومبانيها ، ووفاة رؤسائها ،  
ومعجزات الرهبان ومنازعاتهم ؛ وأضافوا إلى ذلك مذكرات عن الحسوف

والكسوف ، والمذنبات ، والحفاف ، والفيضان ، والقحط ، والأوبئة ،  
ونذر أيامهم ؛ وتوسع بعضهم فضمن كتاباته بعض الحوادث القومية والدولية  
نفسها . وقل منهم من كان يبحث في المراجع التي يعتمد عليها بروح النقد  
الصحيح ، أو يفحص عن العلل ؛ وكان معظمهم مهملين غير دقيقين ،  
يضيفون إلى أرقامهم صفراً أو صفيرين ليعثوا الحياة في الإحصاءات الميتة ؛  
وكلهم بلا استثناء يأتون بالمعجزات ، ويظهرون سذاجة واستعداداً ظريفاً  
لتصديق كل ما يقال . من ذلك أن الإخباريين الفرنسيين افترضوا أن فرنسا  
قد استوطنتها الطرواديون النبلاء ، وأن شارلمان فتح أسبانيا واستولى على  
بيت المقدس ، وحاول كتاب أعمال الفرنسيين *Gesta Francorum* (حوالي  
١١٠٠) أن يروي بأمانة نسبية قصة الحرب الصليبية الأولى ، ولكن كتاب  
*Gesta Romanorum* (حوالي ١٢٨٠) يروي في صراحة  
تاريخاً مخترعاً لتشوسر ، وشيكسبير ، وألفا من كتاب الروايات . وجعل  
جوفري المنموث *Geoffrey of Monmouth* حوالي (١١٠٠ - ١١٥٤)  
من كتابه تاريخ بريطانيا *Historia Britonum* ضرباً من الأساطير القومية ،  
وجد فيها الشعراء قصص الملك لير ، وآرثر ، وميرلين *Merlin* ، ولانسلت  
*Lancelot* ، وترسترام *Tristram* ، وبرسفال *Perceval* ، وجريل المقدس  
*Holy Grail* . ومن الأدب الحي حتى الآن أثرية جوسلين *Jocelyn* وما رواه  
من أخبار بيوري سانت إدمندس *Bury St. Edmonds* (حوالي ١٢٠٠)  
وما رواه الأخ سلمبيني *Salimbene* عن بارما (حوالي ١٢٨٠) .

وفي عام ١٢٠٨ أهدى ساكسولانج (اللغوي) *Saxo Lange* الذي سمي  
بعد وفاته ساكسو النحوي *Saxo Grammaticus* إلى أبسالوم كبير أساقفة لند  
*Lund* كتابه أعمال الدنمركيين ، وهو كتاب فيه بعض الحشو وفيه من سرعة  
التصديق ما لا يصدق الإنسان (١) . ولكنه مع ذلك قصة قوية حية ، فيها من

الاتصال أكثر مما في كثير من تواريخ الغرب في هذه الأيام . ففي الكتاب الثالث من هذا المؤلف نقرأ عن أمليث Amleth أمير جتلندة Jutland الذي قتل عمه الملك وتزوج الملكة . ويقول سنكسو إن أمليث هذا « اختار أن يتظاهر بالبلادة وفقدان الوعي فقداناً كاملاً ، وضمن بهذا الصنع الماكر سلامته » .

وارتقى خمسة من المؤرخين اللاتين في ذينك القرنين من طبقة الإخباريين إلى طبقة المؤرخين وإن احتفظوا بالطابع الإخباري . من هؤلاء ولیم المالمزبری ( حوالي ١٠٩٠ - ١١٤٣ ) الذي رتب مادة كتابه أعمال الإخبار Gesta Pontificum ، وأعمال الملوك الإخبار Gesta Regum Anglorum ليجعل منها قصة متصلة حية ، نزيهة ، جديرة بالثقة ، تروي أخبار الأخبار والملوك . وأرسل أوردركس فيتالس Ordericus Vitalis ( حوالي ١٠٧٥ - ١١٤٣ ) المولود في شروزبري Shrewsbury إلى دير القديس إفرول St. Evroul في نورمندي في العاشرة من عمره وفاء لنذر ، وعاش فيها بقية سنه الثمان والستين ، ولم ير خلالها أبويه . وقضى من هذه السنين ثمان عشرة في كتابة تاريخ الكنيسة المكون من خمسة مجلدات ، ولم يمتنع عن العمل في خلال تلك السنين ، كما يقول الرواة ، وأشد أيام الشتاء برداً حين كانت أصابعه تفقد حساسيتها من فرط البرد . ومن عجب أن عقلاً مضيقاً عليه في المكان يستطيع التحدث هذا الحديث الحسن في مختلف الشؤون الدينية والدينيوية ، فضلاً عن استطرادات في تاريخ الرسائل والأخلاق العادية . وقص أتو Otto أسقف فراينج ( حوالي ١١١٤ - ٥٨ ) في كتابه في المدينتين تاريخ الدين والعالم الديوي من خلق آدم إلى ١١٤٦ ، وبدأ ترجمة مليئة بالفخر لابن أخيه فردريك بربرستا ، ولكنه توفي ولما يتجاوز بطله منتصف حياته . وعين رجل فرنسي مولود في فلسطين يدعى ولیم الصوري William of Tyre ( حوالي ١١٣٠ - ١١٩٠ ) مستشاراً لبولدون الرابع ملك بيت المقدس ،

ثم أصبح بعدئذ كبير أساقفة صور ؛ وتعلم اللغات الفرنسية ، واللاتينية واليونانية والعربية وقليلاً من اللغة العبرية ؛ وكتب بلغة لاتينية سليمة كتاباً هو خير ما يعتمد عليه من المصادر في تاريخ الحملات الصليبية الأولى ، وسماه تاريخ حوادث ما وراء البحار *Historia reum in partibus transmarinis gestarum* . وقد حاول فيه أن يفسر الحوادث جميعها بالاستناد إلى الأسباب الطبيعية . وكانت نزاهته في تصوير أخلاق نور الدين محمد د وصلاح الدين من أكبر أسباب عقيدة أوروبا المسيحية في هذين العاهلين اللذين يخالفانها في الدين . وكان ماثيو باريس ( حوالي ١٢٠٠ - ١٢٥٩ ) راهباً في دير سانت أولبنز ، وشغل أولاً منصب مؤرخ لديره ، ثم بعد ذلك منصب مؤرخ للملك هنري الثالث ، واستعان بهذين المنصبين على تأليف كتابه التاريخ الكبير بلغة شيقة ممتعة ؛ وهو يروى الحوادث الهامة التي وقعت في تاريخ أوروبا بين عامي ١٢٣٥ ، ١٢٥٩ . ويمتاز كتابه بالوضوح والدقة ، ولكن فيه تحيزاً لم يكن متوقعاً منه ؛ وندد فيه « بالبخل الذي نقر الشعب من البابا » ، وانحاز إلى فردريك الثاني ضد البابوية . وملاً صفحاته بأنباء المعجزات ، وروى قصة اليهودي الجوال ( في عام ١٢٢٨ ) ، ولكنه روى بصراحة تشكك أهل لندن في انتقال بعض نقط من دماء المسيح إلى دير وستمنستر ( ١٢٤٧ ) . ووضع كتابه بعدة خرائط لإنجلترا رسمها بنفسه ، وهي خير ما رسم من الخرائط في ذلك الوقت ، وربما كان هو الذي رسم أيضاً الأشكال التي وضع بها كتابه . وإنا لنعجب بجدده وغازارة علمه ، ولكن الصورة التي رسمها للنبي محمد ( ١٢٣٦ ) تكشف عما يمكن أن يكون عليه رجل مسيحي متعلم من جهل عجيب بالتاريخ الإسلامي .

أما أعظم المؤرخين في ذلك العصر فهما فرنسيان كتبوا بلغتهما القومية ، وكان لهما مع الشعراء الغزلين ورواة الملاحم وشعرائها الفضل في جعل اللغة الفرنسية لغة

أدبية . فأما أولهما جيوغروفي ده فيل هاردون Geoffroy de Villehardouin ( حوالي ١١٥٠ - حوالي ١٢١٨ ) . فكان من النبلاء والمحاربين لم ينل من التعليم النظامي إلا القليل ؛ ولكن جهله بالخيال البلاغية التي تعلم في المدارس هو الذي مكثه من أن يملئ كتابه فتح القسطنطينية ( ١٢٠٧ ) بلغة فرنسية دقيقة نخالية من التعميق ، تتجه نحو الغرض من أقرب طريق ، ومن أن يجعل هذا الكتاب من أهم ما كتب في فن كتابة التاريخ . ولم يكن من أسباب شهرة هذا الرجل بُعده عن التحيز ، فقد كان وثيق الصلة بالحرب الصليبية الرابعة ، واضطلع فيها بدور هام ، فلم يستطع لهذين السببين أن يرى تلك الخيانة الحميلة الظاهرة ، خيانة الحقيقة والتاريخ ، بعين الرجل الموضوعي الذي ينظر إلى الحقائق دون غيرها ؛ ولكن من أهم مزاياه أنه كان في وسط الحوادث نفسها يشهدها ويحس بها حين وقوعها ، مما أضفى على كتابه حيوية لا يكاد يبليها الزمن . وظهر بعد قرن أو نحوه من ذلك الوقت جان سير ده جوانفيل Jean Sire de Joinville قيم القصر في شمبانيا ؛ وبعد أن خدم لويس التاسع في حملته الصليبية وفي فرنسا ، كتب وهو في الثامنة والخمسين من عمره كتابه تاريخ القديس لويس ( ١٣٠٩ ) ؛ ونحن نحمد له وصفه لخلائق التاريخ وصفاً أميناً بعيداً عن التكلف ، واهتمامه بعاداتهم وقصصهم التي توضح سيرهم وتثير ما يكتنفها من ظلمات . وبفضله نستطيع أن نحس بالجو الذي كان سائداً في ذلك العصر كما لا نحس به في كتاب فيل هاردون ، فتصحبه حين يخرج من قصره بعد أن يرهن ما يمتلكه كله تقريباً لينضم إلى الحملة الصليبية ؛ ويقول إنه لم يجرؤ على النظر إلى الوراء حتى لا يندوب قلبه أسى حين تقع عينه على زوجته وأبنائه ، ولعله لن يراهم بعد ذلك اليوم . ولم يكن لهذا الرجل ما كان لفيل هاردون من دهاء وسعة حيلة ، ولكنه كان يمتاز بالإدراك الفطري السليم ، وكان يرى ما في قديسه من عيوب ، ولهذا رفض أن ينضم إلى الحملة الصليبية التالية حين طلب إليه لويس الانضمام إليها ،

لأنه رأى ببصيرته أن هذه مغامرة لا يرجى لها فلاح ، ويقول إنه حين سأله هذا الملك الورع : « أيهما تفضل - أن تصاب بالجذام أو أن ترتكب خطيئة موبقة ؟ » .

« فأجبتته وأنا الذي لم يكذب عليه قط بأنه خير لي أن أرتكب ثلاثين خطيئة موبقة من أن أصاب بالجذام . ولما خرج الرهبان من حضرته استدعاني وحدي وأجلسني عند قدميه وقال لي : كيف تجرؤ على هذا القول ؟ ... فأجبتته بأني قلته مرة أخرى بعد ذلك الوقت ؛ فرد علي بقوله : لقد تسرعت وكنت أحمق في ردك ، فإن من واجبك أن تعرف أنه ليس ثمة جذام أبشع من ارتكاب الخطيئة الموبقة ... وسألني : هل غسلت أقدام الفقراء يوم خميس الصعود ؟ فأجبتته : يا مولاي ، لو فعلت لأصبت بالغيثان ، إني لن أغسل قط أقدام أولئك الأودياء . فقال لي الملك : الحق أنك قد اخطأت إذ نطقت بهذا القول ، لأن عليك ألا تحتقر ما فعله الله ليعلمنا ، ولهذا فإني أرجوك بحق حبك الله أولاً وحبك إياي ثانياً أن تعود نفسك غسل أقدام الفقراء » (٢) .

ولم تكن حياة القديسين كلها تروى بمثل هذا الصدق وتلك الأمانة ؛ ذلك أن الإحساس بالالتزام بالأمانة ومراعاة الضمير في رواية التاريخ كانا من الضعف في عقول الناس في للعصور الوسطى بحيث يخيل إلينا معهما أن كتاب هذه القصص الأخلاقية كانوا يظنون أن لا ضرر مطلقاً في اعتقاد الناس أن ما يروونه صحيح كله ، وأن الخير كل الخير في أن يصدقوه . وأكبر الظن أن المؤلفين كانوا في معظم الأوقات يأخذون القصص المنتشرة عن غيرهم ، وأنهم كانوا يصدقون ما يكتبون . وإذا أخذنا تراجم القديسين على أنها قصص لا أكثر وجدناها مليئة بالطرائف والمتع . فلينظر القارئ مثلاً إلى الطريقة التي حصل بها القديس كرسطوفر Christopher على اسمه لقد كان في أول حياته رجلاً جباراً من أهل كنعان يبلغ طوله

ثمانى عشرة قدماً ، ثم دخل فى خدمة أحد الملوك لأنه سمع أن هذا الملك أقوى رجل فى العالم . وحدث فى يوم من الأيام أن رسم الملك على نفسه علامة الصليب حين ذكر بعضهم أمامه اسم الشيطان ، فاستدل كرسنتر من هذا على أن الشيطان أقوى من الملك ، ولم يكن منه إلا أن دخل فى خدمة الشيطان . ولكن الشيطان رأى علامة الصليب إلى جانب الطريق فولى هارباً ، واستدل كرسنتر من هذا على أن عيسى ( عليه السلام ) أقوى بلا شك من الشيطان ، فوهب نفسه للمسيح . ووجد الرجل مشقة فى الصوم المسيحي ، فقد كان جسمه الضخم يتطلب الطعام الكثير ، وكان لسانه الكبير يتعثر فى أبسط الصلوات . ووضع ناسك صالح على شاطئ مخاضة أغرق تيارها السريع كثيرين ممن حاولوا اجتيازها . وحمل كرسنتر المسافرين على ظهره ونقلهم إلى الشاطئ الآخر فى أمان دون أن يبتلتوا بالماء ، حتى كان فى يوم من الأيام يحمل طفلاً صغيراً ليعبر به المجرى ، فوجده ثقيلاً ؛ ولما سأله عن السبب أجابه الطفل بأنه يحمل ثقل العالم كله ؛ ولما وصل هذا الطفل إلى بر السلامة شكر له حسن صنيعه وقال له : « أنا المسيح عيسى » ثم اختفى ؛ وفى هذه اللحظة أزهرت فجأة عصا كرسنتر وكان قد غرسها فى الرمل (٢) . ثم لينظر القارئ إلى قصة القديس جورج شفيع بريطانيا . فمن هو هذا القديس ؟ لقد كان بالقرب من سيلينم Silenum فى ليبيا تنين يقدم له فى كل عام شاب أو شابة طعاماً له ؛ وكان الشاب ( أو الشابة ) يختار بالقرعة ويقدم للتنين حتى لا يسمم القرية بنفسه . ووقعت القرعة فى أحد الأعوام على ابنة الملك العذراء ، ولما أقبل اليوم الموعود مشت نحو البركة التى يقيم فيها التنين ، فرآها القديس جورج وسألها عن سبب بكائها ، فأجابته الفتاة قائلة : « أمها الشاب ، أرى أن لك قلباً كبيراً نبيلاً ، ولكنى أرجوك أن تبادر بالابتعاد عني » . وأبى الشاب أن يجيبها إلى ما طلبت ، وما زال بها حتى أجابته عن سؤاله ، فلما فعلت قال لها :

« لا تخافى فإني سأساعدك باسم عيسى المسيح ». وخرج التنين من الماء في هذه اللحظة ورسم جورج علامة الصليب ، ونادى باسم المسيح ، وهجم على التنين ، وطعنه بحربته ، وأمر الفتاة أن تلتق بمنطقتها حول عنق التنين الجريح ، ففعلت ما أمرها به ؛ وخضع التنين لسحر جمالها الفتان كما يخضع له كل شهيم من الرجال ، وسار خلفها مطيعاً ذليلاً طوال حياتها وجمع ياقوبو ده فوراجين Jacopo de Voragine كبير أساقفة جنوى هاتين القصتين وأمثالها في كتاب ذائع الصيت نشر حوالي ١٢٩٠ ؛ فكان يروى لكل يوم من أيام السنة قصة قديسها المخصص هذا لليوم له ، وسمى كتابه *Legenda sanctorum* عن القديسين . وصارت مجموعة قصص ياقوبو من الكتب المحببة للقراء في العصور الوسطى ، وأطلقوا عليها اسم *القراءات الذهبية* . وأشارت الكنيسة بوجوب الاحتياط تصديق بعض هذه القصص<sup>(٤)</sup> ، ولكن الناس أحبوها وصدقوها كلها ، ولعلهم لم يكونوا في هذا أكثر انخداعاً في الحياة عن السذج من الناس الذين يصدقون القصص الخرافية في هذه الأيام .

وكان الشعر أحسن ما كتب باللغة اللاتينية في العصور الوسطى ، ولم يكن الكثير منه شعراً إلا بالاسم فحسب ، لأن جميع المواد التلقينية على اختلاف أنواعها - من تاريخ ، وقصص ، ورياضة ، ومنطق ، ودين ، وطب - كانت تكتب في أبيات موزونة مقفاة ، ليسهل بذلك استظهارها . وكتبت أيضاً ملاحم تافهة عظيمة الطول مثل ملحمة الكسندريس *Alexandreis* (١١٧٦) التي نظمها ولتر الشاتيونى *Walter of Châtillon* وتبدو لنا هذه الملاحم الآن مملة بقدر ما تبدو قصيدة الفردوسى المفقود *Paradise Lost* وكتب أيضاً جدل شعري - بين الجسم والنفس ، والموت والإنسان ، والرحمة والصدق ، والفلاح والقس ، والمرأة والرجل والنبيذ والماء ، والنبيذ والجمعة ، والورد والبنفسج ، والطالب الفقير والقس

الذى ينال من الطعام كفايته . بل ذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فكتب  
جدلا بين هيلين وجنيميد ليوازن بين فضائل عشق الرجال للنساء وعشق  
الرجال للغلمان (٥) . وقصارى القول أن شيئاً ما من شئون الآدميين لم يكن  
غريباً على الشعر .

وترك الكتاب من القرن الخامس وما بعده قياس أوزان الشعر بمقدار  
ما فيه من الحروف المتحركة كما كانوا يفعلون في الشعر القديم ، وجاء  
الشعر اللاتيني المستمد من الشعور العام لامن الفن العلمى بنوع من الشعر  
جديد يعتمد على النبرات والوزن والقافية . وكانت هذه الضروب من  
الشعر موجودة بين الرومان قبل أن تغزو الأوزان اليونانية بلادهم ، وظلت  
ألف عام مع الطراز اليونانى . وبقيت الأنماط الفصحى - من شعر سداسى  
الأوتاد، ومراث ، وشعر من نوع شعر سايفو طوال العصور الوسطى ؛ ولكن  
العالم اللاتينى حل هذه الأنماط ، فقد نحيل إليه أنها لا تتناغم مع أمزجة  
التقى ، والرحمة ، والرقه ، والأدعية الدينية التى نشرها الدين المسيحى ؛  
فدخلت فيه أوزان أكثر منها بساطة ، هى الأبيات القصيرة من البحر  
العميق (\*) تكاد تنقل كل عاطفة بشرية من خلجات القلب إلى ضربات  
أرجل الجند الزاحفين إلى الحرب .

وما من أحد يعرف من أين جاءت القافية إلى العالم المسيحى الغربى  
وإن كان الكثيرون يبدون آراء تعتمد على الحدس وحده . لقد  
اتبعت القافية فى عدد قليل من القصائد الوثنية كقصائد إينوس ،  
وشيشرون ، وأبوليوس ؛ وكانت تستعمل أحياناً فى الشعر العبرى  
والسريانى ، واستعملت مراراً متفرقة فى الشعر اللاتينى أثناء القرن  
الخامس ؛ وهى شائعة الاستعمال فى الشعر العربى منذ عهد قديم يرجع  
إلى القرن السادس الميلادى . ولعل حب المسلمين للقافية قد أثر فى

(\*) iambic بحر من الشعر مؤلف من فواصل قصيرة تليها فواصل طويلة ، أو من  
مقاطع لها نبرة صوتية تليها مقاطع غير ذات نبرة صوتية . ( المترجم عن قاموش سعادة )

المسيحيين الذين اتصلوا بالإسلام ؛ وبذكرنا الإفراط في التزام القافية في  
أواسط الأبيات وأواخرها في شعر العصور الوسطى اللاتيني بهذا الإفراط  
عينه في الشعر العربي . ومهما يكن في هذا من خير أو شر فإن هذه  
الصنغ الجديدة قد أنتجت ضرباً جديداً من الشعر اللاتيني ، يختلف  
في كل شيء عن الشعر القديم ، موفوراً وفرة عجيبة ، يبلغ من الجودة  
درجة لم تكن متوقعة . وإلى القارئ مثلاً من شعر بطرس دميان  
( ١٠٠٧-١٠٧٢ ) الناسك المصلح يشبه دعوة المسيح بدعوة محب فتاة يحبها :

منذا الذي يدق بابي ؟

أتريد أن تبدد أحلام ليلى ؟

فيناديني ؛ يا أجمل العذارى ،

يا أختي ؛ ورفيقتي ، يا جوهرة متألقة !

أسرعي ! قومي ! افتحي يا أحلى الفتيات !

\* \* \*

أنا ابن الملك العلي الأعلى

أنا أكبر أبنائه وأصغرهم

هبط من السماء إلى هذه الظلمة

ليحرر أرواح الأسرى .

لقد تحملت الموت وكثيراً من ضروب الأذى .

\* \* \*

فغادرت فراشي من فوري

وهرولت نحو عتبة الباب

لكي يفتح البيت كله إلى الحبيب

وتتملي روعي بروية

من تتحرق شوقاً إليه .

ولكنه مرّ بنا مسرعاً

وغادر باني

فماذا أفعل أنا الشقية البائسة ؟

فتبعت والدمع ينهمر من عيني

الشاب الذي صورت يدها الإنسان .

وكان قول الشعر عند بطرس دميان أمراً عارضاً ؛ أما عند هيلدبرت اللقرديني Hildebert of Lavardin ( ١٠٥٥ - ١١٣٣ ) كبير أساقفة تور فكان هياماً شق به طريقه إلى الإيمان . ولعل برنجر Birenger عالم تور Tours الذي درس على فلبرت في بلدة شارتر Chartres قد بعث فيه حباً للآداب اللاتينية القديمة . ونزلت به محن كثيرة سافر بعدها إلى رومة ، وهو لا يدرى أى الأمرين أقوى عنده من الآخر : أهو السعى إلى البركة البابوية ، أم إلى رؤية الأماكن التي جعلتها القراءة عزيزة عنده ؟ وتأثر الرجل بعظمة العاصمة القديمة واضمحلالها ، وأنطقه شعوره بمرثاة من الطراز القديم :

« أى رومة ! ليس في المدائن كلها ما يمائلك ! وإن كدت تصبحين خربات ! ألا ما كان أعظمك وأنت بمنجاة من الدمار ! إننا نتعلم منك في محنتك ؛ لقد حطم كبرياءك مر الدهور ، فتداعت في المناقع حصون قيصر مع هياكل الأرباب . وتهدمت تلك الصروح ، تلك الصروح الشاهقة التي كان البرابرة العتاة يرتعدون خوفاً حين يرونها قائمة ، ويحزنون حين يرونها متداعية . . . ولكن كر الدهور وقععة السيوف لا يقويان على إبادة هذا المجد . »

في هذه المرثاة برع شاعر في العصور الوسطى في استخدام اللغة اللاتينية براعة لا تقل عن براعة فرجيل نفسه . ولكنه لم تفارقه قط نزعة المسيحية ، فقد كان يجد من السلوى في المسيح ومريم أكثر مما يجدها في جويتر ومنيرفا ، ولهذا

نراه في قصيدة متأخرة عن القصيدة السابقة بهجر الأضرحة القديمة ويقول :  
( رومة تتحدث ) : إن هذه الهزيمة أحلى عندي من تلك الانتصارات ،  
وإني في فقري لأعظم مني في غناي ، وإني وأنا ملقاة على الأرض لأعظم مني  
وأنا رفيعة العباد ، ولقد أمدني علم الصليب بأكثر مما أمدني النسور ،  
ووهبني بطرس أكثر مما وهبني قيصر ، وحبتي الجموع العزلاء بأكثر مما  
حباني القواد المدججون بالسلاح . لقد سدت الأمم وأنا قائمة على قدمي ،  
وهأنذا وأنا مخربة أضرب في أعماق الأرض ؛ ولقد سيطرت على الأجسام  
وأنا قائمة ، وهأنذا وأنا محطمة جاثية أحكم الأرواح ؛ لقد كنت في الزمن  
القديم أمر شعبا بائسا ، أما الآن فإني أصدر أوامري إلى أمراء الظلام ؛ لقد  
كانت المدائن مملكتي في الزمن القديم أما الآن فمملكتي هي السماء .

إن اللغة اللاتينية لم يكتب بها حتى ذلك الوقت شعر يضارع هذا الشعر  
منذ أيام فورتناتس Fortunatus .

## الفصل الثاني

### الخمر والمرأة والأغاني

من الطبيعي أن يكون علمنا بالنواحي الوثنية أو المتشككة في حياة العصور الوسطى قطعاً متفرقة ؛ ذلك بأن الماضي لم يصل إلينا نزيهاً أميناً إلا في دماثنا . وهذا يزيد من إعجابنا بروح التسامح والتحرر - أو روح الزمالة في الغبطة - التي حملت دير بندكتيرن Benediktbeuern ( في بافاريا العليا ) على الاحتفاظ بالخطوط الذي شق طريقه إلى المطبعة في عام ١٨٤٧ وسمى باسم قصائد بيران Carmina Burana والذي يعد الآن أهم ما لدينا من المصادر لشعر « العلماء الجوالين » (\*). ولم يكن هؤلاء من الذين يضربون في الآفاق ؛ فقد كان منهم رهبان ضلوا في طريقهم إلى أديرتهم ، ومنهم قساوسة فقدوا مناصبهم ، وكانت كثيرتهم طلاباً في طريقهم من موطنهم إلى جامعتهم أو من إحدى الجامعات إلى الأخرى ؛ وكثيراً ما كانوا يقطعون طريقهم هذا سيراً على أقدامهم . وكان كثير من الطلاب يعرجون على الحانات في الطريق ، ومنهم من كانوا يتذوقون الخمر والنساء ، ويستمعون إلى المعارف غير المدونة ، ومنهم من كانوا يولفون الأغاني ، ويتغنون بها ، ويبيعونها لمن يطلبها ؛ ومنهم من فقدوا أملهم في أن يكونوا من رجال الدين فكانوا يعيشون بأقلامهم يخلصون بشعرهم الأساقفة أو الأعيان . وكانت أكثر ميادين نشاطهم فرنسا وألمانيا الغربية ؛ ولكن شعرهم ما لبث أن انتشر بين البلدان المختلفة لأنهم كانوا يكتبونه باللغة اللاتينية . وكانوا يدعون أنهم ينتظمون في هيئة خاصة هي نقابة الجوالين ، واخترعوا لها مؤسسا . وهو ما

---

(\*) ومن المصادر الأخرى مخطوط في مكتبة هارلم ألف قبل عام ١٢٦٤ ونشره تومس برايت في عام ١٨٤١ باسم « قصائد لا تينية تعزى عادة إلى واترمبس » .

وقديساً شفيفاً هو شخصية أسطورية شبيهة بشخصيات ريليه وسموه جلياس Golias . وإنا لنجد من ذلك الزمن البعيد ، وهو القرن العاشر الميلادي ، ولتر كبير أساقفة سان Sens ساخطاً أشد السخط على « أسرة جلياس » المرذولة ، كما أن مجلساً كنسياً عقد في عام ١٢٢٧ جهر بسبخظه على الجلياردي Golia di لأنهم ينشدون أشعاراً يسخرون فيها من أقدم الأناشيد والطقوس الدينية<sup>(٦)</sup> . ويقول مجلس سالزبرج المنعقد في عام ١٢٨١ إنهم « يسرون بين الناس عراة ، وينامون في أفران الخبز ، ويغشون الحانات ، وأماكن الألعاب ، والمواخير ، ويكسبون عيشهم برذائلهم ، ويتشبهون أشد التشبه بشيعتهم »<sup>(٧)</sup> .

ولسنا نعرف من هؤلاء الشعراء الجليارديين ، إلا أفراداً قلائل ، منهم شاعر يسمى هيو Hugh أو هوجو بريماس Hugo Primas ، وكان راهباً علمانياً في أورليان عام ١١٤٠ يصفه كاتب من منافسيه<sup>(٨)</sup> بأنه « إنسان ذيء ، مشوه الوجه » ، ولكنه اشتهر « في كثير من الأقاليم » بحضور البديهة ، وقرض الشعر ، هلك لأن أحداً لم يبتع شعره ؛ وكان يقذف الأغنياء من رجال الدين بأقذع أنواع الهجاء التي يملها عليه حقه . كان رجلاً غزير العلم ، صفيق الوجه ، قليل الحياء ، يصوغ أفحش المعاني في شعر سداسي الأوتاد ، لا يقل روعة عن شعر هيلدبيرت .

وكان أوسع منه شهرة شاعر آخر لا نعرف الآن اسمه ولكن المعجبين به كانوا يسمونه « كبير الشعراء Archipoeta » (حوالي ١١٦١) ؛ وهو فارس ألماني يفضل الخمر والمداد عن السيف والدم ، ويعيش عيشاً مضطرباً على الصدقات التي كان يمدده بها من حين إلى حين رينلد فن داسل Rainald Von Dassel كبير أساقفة كولوني المنتخب ، وسفير بربرسا في بافيا . وحاول رينلد أن يصلح ما فسد من أخلاقه ، ولكن الشاعر توسل إليه أن يتركه وشأنه ، وكان ذلك في قصيدة من أشهر ما قيل من القصائد في العصور الوسطى ، وهي قصيدة « اعتراف

جالوت» - التي أصبحت المقطوعة الأخيرة منها نشيد الشراب المحبب الشائع  
في الجامعات الألمانية :

١ أنا الذي فاضت نفسي بالحقد الدفين الشديد ،  
استمع يا ضاح إلىّ أعلن ما في نفسي من حقد مرير :  
لقد خلقت من عنصر واحد ، مادتي الطيش ،  
أشبه الأشياء بورقة من شجرة في مهب الريح .

\* \* \*

٢ لم أطق حتى اليوم الأجزان ولا الاعتدال في الشهوات ،  
أحب الزكيات ، والمرح عندي أحلى من الشهد .  
وكل ما أمرت به فينوس هو عندي الغبطة التي لاتعادها غبطة ،  
وهي لم تتخذ قط لها مسكناً في قلب خبيث .

\* \* \*

٣ إني أسير في الطريق الرحب شاباً غير نادم على شيء ؛  
ألا فلفتني في الرذائل لفتاً لكي أنسى كل الفضائل (\*) .  
فإن شرهي لعب اللذات أكثر من شوقى إلى ملكوت السموات ،  
لأن ما كان فيّ من روح قد مات ، وأصبح من الخير لي أن  
أنجى الجسد .

\* \* \*

٤ عفواً أيها السيد الصالح ، يا صاحب العقل الحصيف ،  
إن هذا الموت الذي أسعى إليه حلوى ؛ وهو سم ما أحلاه .  
لقد نفذت في جسمي سهام لحاظ فتاة جميلة .

(\*) يذكرنا هذا بقول أبي نواس : تكثرت ما استطعت من الخطايا . . . الخ . انظر  
الجزء ١٣ من هذه السلسلة . ( المترجم ) .

وماذا على العقل لو عبدها إن لم يكن إليها من سبيل ؟

\* \* \*

٥ ألا تحرقك النار إن جلست في وسطها ؟  
وإن جئت إلى پاڤيا ، فهل تعود منها طاهراً عفيفاً كما جئتها ؟  
پاڤيا التي تجتذب الشباب بأطراف أناملها ،  
الشباب الذي وقع في شرك عينها وافتتن بسحر شفقتها .

\* \* \*

٦ جىء هپوليتس ليتعشى في پاڤيا ،  
فإذا أصبح الصباح اختفى هپوليتس عن الأنظار .  
فليس في پاڤيا طريق لا يؤدي إلى الفجور ،  
وليس في أبراجها الكثيرة برج واحد للعفاف .

\* \* \*

٧ إن هذا هو معقد أملى ؛ فإذا دنت الساعة منى ،  
فدعنى أمت في الحانة وكأس الخمر إلى جوارى ،  
والملائكة يطاون على ويغنون مغتبطين :

« رضى الله عن هذا السكر » (\*)

وتشمل قصائد بيرن جميع موضوعات الشباب : تشمل الربيع ، والحب ،  
والافتخار بغواية النساء ، والفحش الرقيق ، وأغانى الحب الحنونة التي لا يستجيب  
لها الحبيب ، وأغنية ينشدها طالب علم يشير فيها بوقف الدرس ، وتقرير يوم عطلة  
للحب . . . وفي إحدى الأغاني تفاجى فتاة شاباً أثناء كدحه وتسأله : « ماذا تفعل  
ياسيدى ؟ هيا بنا ناعب سوياً » ؛ وتنغني أنشودة أخرى بخيانة النساء . وأخرى

---

(\*) ما أشبه هذه القصيدة بشعر عمر الخيام الذي ذكر المؤلف شيئاً منه في الجزء الذي عقده  
للحضارة الإسلامية في هذا المجلد . ( المترجم ) .

عبرها بحزن فتاة غدر بها الحبيب ، وكانت بدانتها سببا في الضربات يكيها لها  
أبواها . ويتغنى كثير من القصائد بملذات الشراب ، والميسر ؛ ومنها ما يندد  
بثروة الكنيسة مثل « قصيدة الإنجيل حسب المارك الفضى » ؛ ومنها ما يقلد أنبل  
الترانيم ، ومنها قصيدة على غرار قصائد هوثمان Whitman تتغنى بالطريق  
المفتوح (١٠) . وكثير منها شعر غث لكن منه ما هو آية رائعة من آيات الشعر  
الغنائى . وها هي ذى أنشودة محب يتغنى فيها بالموت المثالى :

لما أن استسلمت في غير مبالاة للحب ولى ،

ضحك الجمال من كوكبها الوضاء البعيد في السماء ،

وعمرتنى نشوة لا حد لعظمتها ،

ولم يتسع قلبي لهذه الغبطة العظيمة التي فاقت على

حين بدلتني حبيبتى ، وقد طوقتني بذراعها ، غير ما كنت ،

وصبت كل ما في شفتيها من رحيق في قبلة حبيبتى بها .

وما أكثر ما أحلم بالحرية التي نلتها من صدرها الابن .

لقد أصبحت بعدها ربا آخر بين أرباب السماء ،

وإذا ما وجدت يدي مرة أخرى فوق صدرها فسأكون المحكم الأعلى

بين الآلهة والخلق (\*) (١١) .

ومعظم الشعر الغزلى في قصائد بيرن شهوا صريح . نعم إن فيه أبيانا

تفيض رقة وظرفاً ولكنها أبيات قليلة نادرة الوجود ؛ وكان علينا ولولم نعر على

هذا الشعر أن نتوقع وجود ترانيم لفينوس تنشأ عاجلا أو آجلا إلى جوار ترانيم

الكنيسة . ذلك أن المرأة ، وهي الدعامة القوية الوفية للدين ، هي أكبر منافس

للآلهة . وظلت الكنيسة تستمع وهي صابرة لهذه الأغاني ، أغاني الحب والحمر ،

(\*) وهذا يذكرنا أيضاً بقول امرئ القيس في معلقته : وبيضة خدر . . . الخ . ( المترجم )

ولكن مجلساً لها عقد في عام ١٢٨١ قرر أن كل قس ( ومن ثم كل طالب )  
يؤلف أغاني شهوانية أو خارجة على الدين ، أو يتغنى بها ، يفقد بذلك  
منصبه الديني وحقوقه . وبذلك انحط من بقي من الطلاب بعد هذا التمرار موالياً  
لجواياث إلى منزلة المغنى ، وخرج من سلك الأدباء إلى سلك الوزانين  
المفحشين . ولم يحل عام ١٢٥٠ حتى كان عهد الطلاب الجواياث قد انقضى .  
ولكنهم كانوا قد ورثوا تياراً وثقافة يسرى في طبقات القرون المسيحية ، ولهذا  
فإن مزاجهم وشعرهم بقيا كامنين حتى دخلا في عصر النهضة .

وكان الشعر اللاتيني نفسه يلفظ آخر أنفاسه بانقضاء عهد الطلاب الجواياث ؛  
ذلك أن القرن الثالث عشر قد وجه العقول نحو الفلسفة ؛ وانزوت الآداب  
القديمة وقنعت بمنزلة صغرى في برامج الجامعات . ولم يجد الأدب الظريف  
الممتع أدب هيلد بيرت ويوحنا السلزبرى الذى كان يضارع أدب عصر  
أغسطس ، لم يجد هذا الأدب من يرثه . ولما تصرم القرن الثالث عشر واتخذ  
دانتي اللغة الإيطالية أداة يكتب بها شعره ، أضحى اللغات القومية لغات  
الأدب ؛ وحتى التمثيل ربيب الكنيسة ونخادمها خلع عنه رداء اللاتينية ونطق  
بلغات الشعوب .

## الفصل الثالث

### بعث التمثيل

مات فن التمثيل القديم قبل بداية العصور الوسطى ، لأنه انحدر إلى تمثيلات هزلية ماجنة ثم حلت محله استعراضات للألعاب ؛ وكانت تمثيلات سنكا وهرسوينا Hroswitha حركات رياضية لا أكثر ، ويبدو أنها لم تجد سبيلها إلى المسرح . وبقيت بعد ذلك ناحيتان من نواحي النشاط التمثيلي تصلان الماضي القديم بالزمن الذي تلا العصور الوسطى : أولاهما مناظر المحاكاة التي كانت تجرى في الأعياد الزراعية ، وثانيتها التمثيلات الهزلية التي كان يمثلها المغنون الجوالون والمهترجون في أهواء القصور أو ميادين القرى (١٢) .

ولكن أشهر منابع التمثيل في العصور الوسطى هي الطقوس الكنسية شأنها في هذا شأن اليونان القديمة . فالقداس نفسه منظر تمثيلي ، والحرم المقدس مسرح مقدس ، وكان القساوسة القائمون بخدمة القداس يلبسون حلالا رمزية ؛ ويقومون هم وخدم الكنيسة بالحوار . وأناشيد القساوسة والمرتلين المتبادلة ، والمرتلين بعضهم مع بعض ، توحى بأن التمثيل تطور من الحوار الذي نشأت منه المسرحية الديونيسية . وفي الاحتفالات التي كانت تقام في بعض الأعياد المقدسة نشأ العنصر التمثيلي نشأة واضحة صريحة ؛ فقد كان الناس في بعض الطقوس الدينية التي تقام في يوم عيد الميلاد في القرن الحادي عشر يدخلون الكنائس في زي رعاة الغنم ويحييهم غلام « ملاك » من المغنين بقوله : « أخبار سارة » ، ويتعبدون أمام صورة طفل من الحبس في مذود . ثم يدخلون ثلاثة « ملوك » من باب في الجهة الشرقية ويقودهم إلى المذود نجم يُجرّ على سلك (١٣) . وكانت بعض الكنائس تمثل في

الثامن والعشرين من ديسمبر « مذبحه البرشين » : فكان بعض الغلمان المرتلين يمشون في صحن الكنيسة وجناحها ، ويسقطون على الأرض كأن هيرود قد ذبحهم ، ثم يقومون ، ويسيرون إلى الحرم المقدس ، يرمزون بذلك لصعودهم إلى السماء<sup>(١٤)</sup> . وفي يوم الجمعة الحزينة كانت كنائس كثيرة ترفع صور المسيح المصلوب من المذبح ، ثم تحمل هذه الصور وتودع في مستقر يشبه الضريح المقدس ، تعاد منه بعد ذلك إلى المذبح في صباح عيد الفصح باحتفال مهيب رمزاً لبعث المسيح<sup>(١٥)</sup> . وكتب جريجوري نزيانزين Gregory Nazianzen بطريق القسطنطينية في عام ٣٨٠ لا بعد قصة آلام المسيح في صورة تمثيلية يوربيدية Euripidean<sup>(١٦)</sup> ، ولا تزال تمثيلية آلام المسيح من ذلك الوقت حتى الآن ذات شأن عظيم عند الشعوب المسيحية . وكانت الكتب تقول إن أول مسرحية من هذا النوع هي التي مثلت في سينا حوالي عام ١٢٠٠ ، ولكن أكبر الظن أن مسرحيات أخرى كثيرة من نوعها مثلت قبل ذلك التاريخ بزمن طويل .

وإذ كانت الكنيسة تستعين بالبناء ، والنحت ، والتصوير ، والموسيقى لتطبع في عقول المؤمنين المناظر والأفكار الرئيسية في الملحمة المسيحية ، فإنها بذلك كانت تلجأ إلى خيال الشعب وتزيد تقواه بما تضيفه على المناظر التمثيلية في الأعياد الكبرى من روعة وتفصيل مطردة الزيادة ؛ وكانت النصوص الموضحة التي أضيفت إلى الطقوس الدينية لتكسبها الروعة الموسيقية ، كانت هذه النصوص الموضحة تحول أحياناً إلى تمثيلات قصيرة . من ذلك أن نصاً موضحاً لعيد الفصح في مخطوط من القرن العاشر في سانت جول St, Gall يدخل الحوار الآتي في ترنيمة مقسمة لتمثل فيها الملائكة والمريمات الثلاث<sup>(\*)</sup> .

**الملائكة :** منذ الذي تبحثن عنه في الضريح يا خادمت المسيح ؟

**المريمات :** نبحث عن المسيح الذي صلب يا رسلا من السماء .

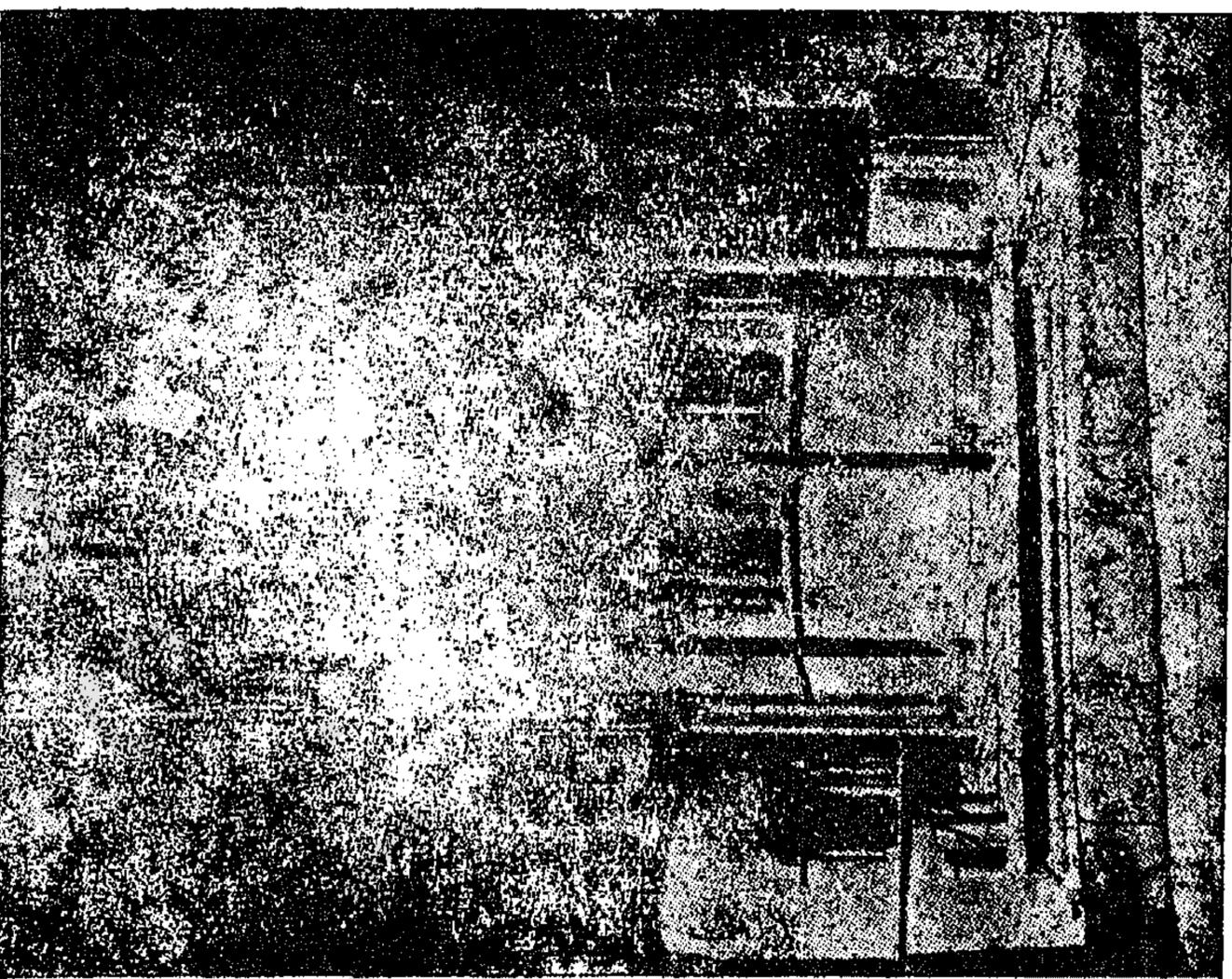
(\*) مريم أم المسيح ، ومريم أختها ، ومريم المجدلية . ( المترجم )

الموتى : ليس هو في هذا المكان ، لقد صعد كما قال من قبل ،  
اذهبن وأذعن أنه قد صعد .

المرتلون ، صعباً : احمدا الرب ، الرب قد صعد (١٧) .

وأخذت المناظر الدينية منذ القرن الثاني تزداد تعقيداً على مر الأيام حتى  
لم يعد تمثيلها في داخل الكنيسة مستطاعاً ، ولذا أقيم طوار مرتفع في خارجها  
ومثل المسرحية فوقه ممثلون يختارون من بين أفراد الشعب ، ويدربون على  
استظهار أدوار مطولة مكتوبة . وأقدم ما لدينا من أمثلة لهذا الضرب من  
التمثيل تمثيلية آدم التي كتبت في القرن الثاني عشر باللغة الفرنسية بينما سطور  
باللغة اللاتينية مكتوبة بالمداد الأحمر لتكون تعليمات للممثلين .

وفي هذه المسرحية يظهر آدم وحواء في دثارين أبيضين يلعبان في جنة  
ممثلة بأعشاب وأزهار أمام الكنيسة . ثم تظهر الشياطين في الأثواب الحمراء  
الملتصقة بالجسم التي أوضحت من ذلك الوقت ثيابهم الخاصة في دور التمثيل ،  
ويجري أولئك الشياطين بين النظارة يلوون أجسامهم ويقطبون وجوههم  
تقطيباً مروعاً رهيباً ، ويقدمون الفاكهة المحرمة لآدم فرفضها ، فيقدمونها  
لحواء ، فتتناولها ، وتقنع آدم بأن يحدوحدوها . ويدان آدم وحواء برغبتهما  
في المعرفة فيسلكان في أغلال من الحديد وتجرحهما الشياطين إلى الجحيم ممثلة  
بحفرة في الأرض ينبعث منها صوت رهيب دال على الفرح . وفي الفصل  
الثاني يستعد قاين لذبح هابيل وينادى : « يا هابيل سوف تموت » ، فيسأله  
هابيل : « ولم أموت ؟ » فيجيبه قاين : « أتريد أن تعرف لم أريد أن  
أقتلك ؟ ... سأخبرك . سبب ذلك أنك تفرط في سعيك لتنال الحظوة  
عند الله » . ويلقى قاين بنفسه فوق هابيل ويضربه حتى يموت . واكن  
مؤلف الرواية تأخذ الرأفة فيكتب بين السطور بالمداد الأحمر : « سيكون  
تحت ثياب هابيل جفنة » (١٨) .



(الصورة رقم ١٠) المنظر الخلفي لكتدرائية سلمنقة



(الصورة رقم ١١) داخل كتدرائية سنجاو دي كپستپلا

Obeyikenda.com

وأطلق فيما بعد على هذه التمثيليات المستمدة من الكتاب المقدس اسم « الأفعال الخفية » ؛ واللفظ مشتق من الكلمة اللاتينية ministerium ومعناها الفعل ، وكان هذا أيضاً هو معنى drama . ولما أوضحت القصة تمثل أحداثاً وقعت بعد زمن الكتاب المقدس سميت بمسرحيات المعجزات ، وكانت تدور في العادة حول بعض الأفعال العجيبة التي قامت بها العذراء أوقام بها بعض القديسين . وقد كتب هيلاريوس Hilarius تلميذ أبلار كثيراً من هذه المسرحيات (حوالي ١١٢٥) بخليط من اللغتين اللاتينية والفرنسية ، ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى كانت اللغات القومية الأداة التي تكتب بها « مسرحيات المعجزات » . وأخذت الفكاهات المتزايدة الصراحة تصبح فيها ذات شأن مطرد الزيادة ، كما أصبحت موضوعاتها تتجه شيئاً فشيئاً وجهة دنيوية غير دينية .

وكانت « المهازل » في هذه الأثناء قد أخذت تتطور تطوراً مستقلاً نحو المسرحيات . ويتمثل هذا التطور في مسرحيتين قصيرتين وصلتا إلينا من قلم آدم ده لا هال Adam de la Halle (حوالي ١٢٦٠) ، وهو رجل أحذب من أراس Arras . وتدور إحدى هاتين المسرحيتين ، مسرحية آدم صافية ، وجوه لطيف ، بينما كانت الطيور تنطلق بأصواتها العذبة ، تحت بين الأشجار العالية على شاطئ النهر فتاة هي الآن زوجتي . . . لقد رويت الآن ظمأى منها ، . ويخبرها بهذا في صراحة ظريفة ويعتزم الذهاب إلى باريس وإلى الجامعة . ويدخل المؤلف في هذا الفصل الخاص بشثونه هو وزوجته ، طيباً ، ومجنوناً ، وراهباً ، يستجدي الناس الصدقات ويعدهم بالمعجزات ، وجماعة من الجنيات ينشدن الأناشيد ، ويذكرنا هذا بأدوار لرقص التي تقم إقحاماً في التمثيليات الغنائية الحديثة . ويسىء آدم إلى إحدى الجنيات ، فتصب عليه لعنة تمنعه أن يفارق زوجته طول حياته ، ومن

هذا الهراء أخذت المسرحيات تتطور تطوراً مستمراً حتى وصلت إلى مسرحيات برناردشو Bernaad Shaw .

وكلما بعدت المسرحيات عن الموضوعات الدينية واقتربت من الموضوعات الدنيوية ، انتقل تمثيلها شيئاً فشيئاً من الكنيسة وما حولها إلى السوق العامة أو إلى غيرها من ميادين البلدة . ذلك أنه لم تكن هناك وقتئذ دور للتمثيل ، فكانوا إذا أرادوا أن يمثلوا في مكان ما تلك المسرحيات القليلة - وكان ذلك يحدث في العادة في عيد من الأعياد الصيفية - يقيمون مسرحاً مؤقتاً ، ويضعون مقاعد للنظارة ، وينشئون مظلات مزركشة لأصحاب المقامات العالية . وكان من المستطاع أن تستخدم البيوت المحيطة بالميدان لتمثيل المناظر الخلفية وغيرها مما يحتاجه الممثلون . وكان الذين يقومون بالأدوار في المسرحيات الدينية هم الشبان من رجال الدين ؛ أما في المسرحيات غير الدينية فكان الممثلون هم أهل المدينة « الماجنين » أو المغنين الجوالين ؛ وقلما كانت النساء يشتركن في التمثيل . ولما زاد بعد التمثيلات عن الكنيسة في مناظرها وموضوعاتها ، نزعت هذه التمثيلات إلى التهريج والحلاعة والفحش ؛ ورأت الكنيسة ، وهي التي نشأت في أحضانها المسرحية الجدية ، أن لا بد لها من أن تعلن أن التمثيلات القروية تجافي الأخلاق الفاضلة . وهكذا نرى جروستستي أسقف لنكلن يضم التمثيلات ، ومنها « تمثيلات المعجزات » إلى مجالس الشراب . « وعيد الحمقى » (\*) ، ويقول إن هذه أعمال يجب ألا يشهدها أي مسيحي ؛ وصدرت بعده أوامر شبيهة بهذا الأمر ( بين عامي ١١٣٦ و ١١٤٤ ) تقضى بأن الممثلين الذين يشتركون في هذه التمثيلات يجرمون من الدين . أما القديس تومس فكان أكثر من هذا تسامحاً ، وقال إن مهنة التمثيل قد وجدت لمواساة الإنسانية ، وإن الممثل الذي يمارسها على خير وجه ربما نجا من الجحيم برحمة من الله .

(\*) اسم كان يطلق على رأس السنة عند بعض كنائس فرنسا في العصور الوسطى وسمى كذلك لما كان يحدث فيه من الحلاعة . ( المترجم )

## الفصل الرابع

### الملاحم والقصص المنشورة

سار اصطباغ الأدب بالصبغة الدنيوية مع نشأة اللغات القومية جنباً إلى جنب . ويمكن القول بوجه عام إن رجال الدين وجددهم هم الذين كانوا يفهمون اللغة اللاتينية قبل القرن الثاني عشر ، وإن الكتاب الذين كانوا يريدون أن يتصلوا بغير رجال الدين كانوا مضطرين إلى الكتابة باللغات القومية ؛ وكان جمهور القراء يزداد اتساعاً كلما زاد النظام الاجتماعي نماء ، وأخذت الآداب القومية ترتقى تدريجاً لتسد مطالب هذا الجمهور . وكانت نتيجة هذا أن نشأ الأدب الفرنسي في القرن الحادي عشر ، والأدب الألماني في القرن الثاني عشر ، والإنجليزي والأسباني والإيطالي في القرن الثالث عشر .

وكان من الطبيعي أن تصبح الصورة الأولى لهذا الأدب القومي هي الأغنية الشعبية ، ثم طالت الأغنية فأضحت هي القصيدة الغنائية ، ثم كبرت القصيدة الغنائية بما أدخل عليها من تطور وتضحيم فصارت هي الملحمة الصغرى كملحمة بيولف Beowulf ، وأغنية رولان Chanson de Roland ونيبلنجنلايد Nibelungenlied والسيد Cid . وأكبر الظن أن أغنية رولان ضمت بعضها إلى بعض حوالي عام ١١٣٠ من أغان كانت شائعة في القرن التاسع أو القرن العاشر . وهي تروى في أربعة آلاف بيت من الشعر النهل المنسجم العميق الوزن قصة موت رولان في رنسفال Roncessvales . وتفصيل ذلك أن شارلمان يعد أن « فتح » بلاد الأندلس الإسلامية كان عائداً بجيشه نحو فرنسا ، فما كان من جانيلون Ganelon الخائن إلا أن دل العدو على طريق الجيش ، وتطوع رولان لقيادة المؤخرة لينجها من مأزق خطر . وبينما هو سائر في أخطود ضيق

ملتو في جبال البرانس إذ انقض حشد من الباشقنس من شعاب الجبال على قوة رولان الصغيرة . ويرجوه صديقه ألقبييه أن ينفخ في بوقه الكبير ليستنجد بشارلمان ، ولكن رولان يأبى أن يطلب النجدة ، ويقود هو وألقبييه ، وتورپين Turpin كبير الأساقفة ، جنودهم ، ويدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت حتى يقتلوا كلهم تقريباً . وينزف الدم من جروح مميتة في رأس ألقبييه ويغشى عينيه فيظن رولان جندياً من الأعداء ويضربه بسيفه ويشق خوذته من أعلى رأسه إلى موضع أنفه ، ولكنه ينجو من الموت :

وينظر إليه رولان وهو يضربه ؛

ويسأله بصوت لين حنون :

« أيها السيد الرفيق ؛ أتفعل هذا بجد ؟

إني أنا رولان الذي يحبك أعظم الحب

ولم تطلب إلى النزال »

فيقول ألقبييه : « أنا الآن أستمع قولك ؛

ولكني لا أراك ، رعاك الله وأنجلك !

لقد ضربتك ، فاغفرها لي ! »

فيجيبه رولان : « لم أصب بسوء

وأعفو عنك لساعتي وأشهد الله . »

فلما نطق بهذا انحنى كلاهما لصاحبه

وافترقا متحابين (٢٠) .

وينفخ رولان أخيراً في بوقه العاجي ، ويواصل النفخ حتى يندثق الدم من

صدغيه ، ويسمعه شارلمان فيعود لنجدته و « لحيته البيضاء تطير في الريح » .

ولكن الطريق طويل و « الجبال شائخة ، شاسعة مظلمة ، والوديان عميقة ،

والأنهار سريعة التيار » . ورولان في هذه الأثناء حزين مكب على جثة ألقبييه

يناديهما بقوله : « أيها السيد الرفيق ، لقد كنا زميلين أياماً وليالي طوالاً ،  
لم تسيء إلىّ فيها ولم أسيء إليك ، فإذا مت فالحياة من بعدك كلها آلام .  
ويتوسل إليه كبير الأساقفة وهو يحتضر أن ينجو بالهرب . ويأبى رولان ،  
ويواصل الحرب حتى يفرّ المهاجمون ، ولكنه هو أيضاً يصاب بجرح مميت .  
ويستجمع آخر ما فيه من قوة ويحطم فوق صخرة من الصخور سيفه دورندال  
Durendal المطعم بالجواهر حتى لا يقع في أيدي الكفار . و « رقد الكونت  
رولان تحت شجرة صنوبر ووجهه متجه نحو أسبانيا . . . وطافت به وقتئذ  
ذكريات كثيرة . ففكر في البلاد التي فتحها ، وفي فرنسا الحلوة ، وفي  
أسرته ، وفي شارل الذي رباه ، وبكى » . ورفع قفازه إلى السماء دليلاً على  
خضوعه لله ، ووفائه . ويقبل شارل ويجده قد مات . تلك هي خلاصة القصة  
مترجمة ولكن الترجمة أيا كانت لا تستطيع محاكاة أصلها السهل الجدل ،  
وما من أحد غير من نشأ على حب فرنسا وتكريمها يستطيع أن يحس بالقوة  
والعاطفة اللتين تفيض بهما هذه الملحمة التي يحفظها كل طفل فرنسي ويتلوها  
في كل صلواته .

ووهب شاعر مجهول حوالي عام ١١٦٠ أسبانيا ملحمة قومية يمجّد فيها  
أخلاق راي Ruy أو ردريجو دياز ( المتوفى سنة ١٠٩٩ ) ، وهي المعروفة  
بملحمة السيد Poema de Cid . وموضوعها هي الأخرى القتال بين  
الفرسان المسيحيين والمسلمين في الأندلس ، وتمجيد بطولة سادة الإقطاع ،  
وشرفهم ، وعظمتهم ، وتفضيل أجداد الحرب عن ذلة الحب . وينفي  
رولان ملك جاحد بفضله ، فيودع زوجته وأبناءه في أحد الأديرة ويقسم  
ألا يعيش بينهم بعدئذ حتى ينتصر في خمس معارك ، ويخرج لقتال المسلمين .  
ويردد النصف الأول من القصيد ذكر انتصارات هومرية . وينهب السيد  
في خلال الفترات الواثمة بين المعارك أموال اليهود ، ويوزع الصدقات  
على الفقراء ، ويقدم الطعام بيده إلى مجذوم ، ويأكل معه في صحفة  
واحدة ، وينام معه في فراش واحد ، ويتبين أنه العازر Lazarus الذي

رفعه السبيح من بين الموتى . وليست هذه بطبيعة الحال هي صفات السيد التاريخية ، ولكنها لا تسمى إلى التاريخ أكثر مما تسمى إليه أغنية رولان بتمجيدها شارلمان وجعلها إياه مثلاً أعلى للرجال ، وأضحت ملحمة السيد حافظاً قوياً للتفكير الأسباني والعزة الوطنية الأسبانية ، وألفت مئات الأغاني الشعرية التي تدور حول بطلها ، كما ألفت عنه مئات من الكتب متناوطة القرب من الحقيقة التاريخية . وبعد فليس في الأشياء ما هو أبعد عن قلوب الناس من الصدق ، وعماد الناس والدول هو الروايات الخيالية التي تتعاقب على مدى الأيام .

\* \* \*

وانتقل بعد ذلك إلى أيسلندا فنقول إن أحداً لم يفسر لنا بعد كيف أخرجت هذه الجزيرة الصغيرة ، التي قست عليها الطبيعة وفصلتها البحار عن غيرها من البلدان ، في تلك الفترة من الزمان ، أدباً لا يتناسب في مداه ولا في بهائه مع مكانها وحجمها . لقد ساعدها على ذلك عاملان : قدر كبير من الروايات التاريخية المتواترة ، العزيزة على قلب كل جماعة من الناس معزولة عن غيرها من الجماعات ، وحب للقراءة ، أو الاستماع إلى القارئين - أعان عليه طول ليالي الشتاء . لقد وجد في الجزيرة منذ القرن الثاني عشر لا بعد كثير من دور الكتب بالإضافة إلى مكتبات الأديرة . ولما أن أصبحت الكتابة من مميزات الشخص المهذب ، صاغ الكتاب من رجال الدنيا والدين هذه القصص الشعبية صياغة أدبية بعد أن كانت من قبل ملكاً للشعراء الشعبيين .

وكان من المصادفات النادرة أن زعيم كتاب القرن الثالث عشر في أيسلندا كان هو أغنى أهلها ، والرجل الذي اختبر مرتين ليكون رئيساً لجمهوريةها - الناطق بالقانون كما يسمونه فيها . كان أسنرى استورلسون Snorri Sturlson (١١٧٨ - ١٢٤١) يحب الحياة أكثر مما يحب الأدب ، وكان كثير الأسفار ، منهمكاً في السياسة والمنازعات ، ثم قتله زوج ابنته وهو في الثانية والستين من عمره .

وقد روى في كتابه العالم المستدير Heimskringla تاريخ بلاد الشمال وقصصها بما فطر عليه رجل الجحد والعمل من بساطة وإيجاز ، وروى في كتاب إدا استرا استورلسونز Edda Snorra Sturlsnar أو إدا المنشورة موجز التاريخ الوارد في الكتاب المقدس ، وشذرات من أساطير الشماليين ، وضمنه مقالا في أوزان الشعر ، ورسالة فيه ، وشرحا فذاً لنشأة هذا الفن من البول يقول فيه إن طائفتين من الأرباب اقتتلوا ثم عقبوا الصالح بأن أخذوا يبصقون في جرة ، ونشأ من هذا البصاق نصف إله يدعى أكفازير Kvasir . علم الناس الحكمة كما علمهم إياها بروميثيوس . وقتل الأقرام أكفازير ، ومزجوا دمه بالخمير وصنعوا رحيقا يهب كل من يشربه القدرة على الغناء . واتخذ الإله العظيم أودين Odin سبيله إلى المكان الذي خزن فيه الأقرام هذا الخمر الشعري ، وشربه كله ، وطار إلى السماء ، غير أن بعض السائل المحبوس خرج منه بطريقة قلما تستخدم في الفساق العامة ؛ وسقط هذا الماء الإلهي رذاذاً ملهما على الأرض ، وامتص من سقط عليه موهبة قرص الشعر (٢١) . ذلك هراء جاء به عالم من العلماء وليس هو أبعد عن العقل من التاريخ .

وهذه الفترة من تاريخ أيسلندة غنية بأدبها غنى تمار فيه العقول ، ولا يزال هذا الأدب يفيض طرافة ، ومرحاً ، وفكاهة ، وفتنة شعرية تسرى في نثره . وكتبت في ذلك العهد مئات من القصص المنشورة بعضها قصير وبعضها في طول الروايات النثرية ، بعضها تاريخي وبعضها يخلط التاريخ بالأساطير . وكلها بوجه عام ذكريات للحضارة من عصر الممجية ، مليئة بأعمال المروءة والعنف ، يُعْتَدُّها التقاضي ويخفف من مللها الحب . وكثيراً ما يرد في قصص إنجلنجا Ynglinga تأليف أستري ذكر فرسان الشمال الذين يحرق بعضهم بعضاً ، أو يحرق الواحد منهم نفسه ، أو ذكر أبائهم أو أقفاح شراهم . وأوسع هذه القصص خيالاً

قصص الفلستانجاساها Volsungasaga . وقد وردت قصصها في صورة باكرة في الإدا الكبرى أو الإدا الشعرية ؛ وأحدث صورة لها هي التي وردت في هاتم النيبالنجيين Nibalungs تأليف فاجنر Wagnern .

والفلسنج Volsung هو كل من تناسل من ويلز Waels ، وويلز هذا ملك من ملوك الشمال ، وهو ابن حفيد أودين وجد سيجورد Sigurd (سيجفريد Siegfried) . والنيبلنجون حسب نص النيبلنجير Nibelungenlied

ملوك برغنديون ، أما في الفلستانجاساها فهم سلالة من الأقزام يحرسون في بلاد الرين كنزاً وخاتماً من الذهب يجلان عن التقدير ، ولكنهما يجلبان النعمة لكل من يمتلكهما . ويقتل سيجورد فهنير Fahnr التنين الذي يحرس الكنز ويستولى عليه ، ويصل في تجواله إلى تل تحيط به النيران وتنام عليه برندهلد Brundhild الفلكيرية Valkyrie ( نصف الإلهة التي من نسل أودين ) . وتلك إحدى صور قصة الجميلة النائمة Sleeping Beauty . ويفتن سيجورد بجمالها وتفتن هي به ، ويقسمان بيمين الوفاء ، ثم يتركها ويواصل أسفاره - كما يفعل الرجال في كثير من قصص العصور الوسطى . ويلتقي في بلاط جيوكى Gukil أحد ملوك بلاد الرين بالأميرة جدرون Gudrun ، وتسقيه أمها شراباً مسحوراً ينسيه برندهلد ويتزوج جدرون ؛ ثم يتزوج جنار Gunnar بن جيوكى برندهلد ويأتي بها إلى بلاط أبيه ، ويسوؤها نسيان سيجورد إياها فتعمل على قتله ، ثم تندم على فعلتها فتعلو كومة حريقة ، وتنتحر بسيفه وتخرق معه .

وأحدث صورة لهذه القصص الأيسلندية هي قصة أنجال المحترق Njai (حوالي ١٢٢٠) . وشخصيات هذه القصة واضحة تحددتهم أعمالهم وأقوالهم أكثر مما يحدددهم وصفهم . والقصة محكمة البناء وتنتقل حوادثها المثيرة تنقلا يحتمه السياق حتى تصل إلى الكارثة التي تدور حولها حوادثها - وهي احتراق بيت

نجال ؛ واحتراقه هو وزوجته برجثورا Bergthura وأبنائه على أيدي  
جماعة مسلحة من الأعداء يقودهم شخص يدعى فلوسي Flosi يحقد على أبناء  
نجال ويعمل على الانتقام منهم :

ثم نادى فلوسي . . . نجال وقال له .

« إني آذن لك ، يا سيد نجال ، أن تخرج لأنه لا يليق بك أن تحرق في  
داخل الدار »

فإرد عليه نجال قائلاً : لن أخرج لأني شيخ كبير ؛ لا أقوى على النار  
لأبنائي ، ولكن لن أعيش مجللاً بالعار »

ثم نادى فلوسي برجثورا قائلاً : « أخرجي يا صاحبة الدار لأني لا أريد  
أن أحرقك داخل البيت مهما تكن الأسباب ؛

فتجيبه برجثورا بقولها : « لقد تزوجت نجال وأنا صغيرة ، ووعده  
أن ألتق وإياه نفس المصير »

ثم عاد بعد ذلك إلى البيت ؛

وسأله برجثورا : « أية نصيحة تتبعها الآن ؟ » .

فيجيبها نجال : « سندهب إلى فراشنا ، ونرقد عليه ، فطالما تاقت نفسي  
إلى الراحة »

ثم قالت للغلام ثورد Thord بن كاري Kari : « سأخرجك أنت ولن  
تحرق هنا »

فيجيبها الغلام قائلاً : « لقد وعدتني يا جدتي ألا نفترق ما دمت أرغب  
البقاء معك ؛ ولكنني أرى أن موتي معك ومع نجال خير من  
حياتي بعدكما »

ثم حملت الغلام إلى سريرها و... ووضعتة بينها وبين نجال ، ورسمتا عليهما

وعلى الغلام علامة الصليب ، وأسلما أرواحهما إلى الله ، وكان هذا آخر لفظ سمعه الناس منهما (٢٢)

وكان عصر الهجرة ( ٣٠٠ - ٦٠٠ ) قد ترك في ذكريات الشعوب والمغنين المضطربة ألف قصة وقصة عن الفوضى الاجتماعية ، والشجاعة الهمجية ، والحب القاتل ؛ وانتقلت بعض هذه القصص إلى بلاد النرويج وأيسلندة وأثرت **الفلسنجا-إاجا** ، وكثير منها متقاربة الأسماء والموضوعات ، وقد عاشت وتضاعف عددها في ألمانيا في صورة قصص تاريخية ، وقصائد غنائية وقصص شعبية ، حتى قام رجل ألماني غير معروف في زمن غير معروف أثناء القرن الثاني عشر وصاغ من تلك المواد **النيبيلنجينج** أو أغاني **النيبلنجينج** . وهي مصنوعة في قصص مسلسل من الشعر لكل بيتين منه قافية واحدة بلغة القسم الأوسط من ألمانيا العليا ؛ وقصصها مزيج من الانفعالات البدائية والأمزجة الوثنية .

وحكم الملك جنثر Gunther وأخواه برغندية زمنياً ما في القرن الرابع الميلادي في قصرهم في ورمز على ضفة نهر الرين ، وكانت تقيم معهم في ذلك القصر أختهم الشابة كريمهيلد Kremhild - « التي لم يكن أجمل منها في بلد من البلاد » . وكان الملك سجمند في هذه الأثناء يحكم الأراضي الوطيئة ، وأتبع ابنه سيجفريد ( سيجورد ) ضيعة غنية بالقرب من أكسنتين Xanten الواقعة هي الأخرى على ضفة الرين . وترامت إلى مسامع سيجفريد أخبار جمال كريمهيلد فذهب لزيارة بلاط جنثر وأقام هناك على الرحب والسعة مدة عام ، ولكنه لم ير كريمهيلد قط وإن كانت هي قد أبصرت من نافذتها الشبان يتشاقفون في فناء القصر ، فأحبهته من أول نظرة . ذلك أن سيجفريد كان يفوق سائر الشباب في قراع السيوف ، وأظهر بسالة عظيمة في حربه في صفوف البرغنديين ؛ وأراد جنثر أن يحتفل بعقد الصلح بعد انتصاره فأمر سيدات القصر أن يشهدن الاحتفال !

وازينت كثيرات من بنات الأشراف أحسن زينة ، وتاقت نفوس  
الشبان لنيل رضا السيدات وإعجابهن ، ونزلوا عن حقهم في أرض الملك  
الغنية نظير فوزهم بهذا الإعجاب . . . . : وتبدت كريمهيلد كأنها كوكب  
الصباح يتألق بين السحب الدكناء ، ولم يكده يراها الشاب الذي انطوى  
قلبه على حبها من زمن بعيد حتى ذهب عنه ما كان يحس به من تعب . . . .  
وسر سيجفريد وحزن ، فقد قال في نفسه : « كيف أخطب ود فتاة مثلك ؟  
تلك لاريب أضغاث أحلام ، ولكن الموت عندي أفضل من البعد عنك » . . .  
واحمرت وجنتاها حين أبصرت أمامها ذلك الرجل ذا النفس العالية ،  
وقالت : « مرحباً بك يا سيجفريد ، أنها الفارس الباسل النبيل » . وامتلاً  
قلب الفارس شجاعة حين سمع هذه الألفاظ ، وانحنى أمامها انحناءة جميلة  
شأن الفارس الشهم ، وشكرها تحيتها . وارتبط قلباهما برباط الحب القوي  
وتبادلا النظرات سراً .

وترامت أخبار برنهيلد ملكة أيسلندة إلى جنثر وكان أعزب ، وقيل له  
إنها لا يناها إلا من يتفوق عليها في ثلاث تجارب للقوى ، وإنه إذا أخفق في  
أية تجربة منها جوزى بقطع رأسه . ووافق سيجفريد على أن يساعد جنثر على  
نيل برنهيلد إذا زوجه بكريمهيلد . ويعبران البحر بسرعة القصص وسهولتها ،  
ويلبس سيجفريد طيلساناً سحرياً يخفيه عن الأنظار ، ويساعد جنثر على  
الخروج ظافراً من التجارب الثلاث ، ويأتي جنثر ببرنهيلد إلى موطنه ليتزوجها  
على كره منها . وتساعد ست وثمانون فتاة كريمهيلد على إعداد الأثواب الغالية  
للعروس . ويحتفل بزواج جنثر وبرنهيلد وبزواج سيجفريد وكريمهيلد  
احتفالاً فخماً .

ولكن برنهيلد تبصر سيجفريد فتحس أنه هو لا جنثر الذي يليق أن يكون  
زوجها . ويقبل جنثر عليها ليلة زفافها فترده عنها خائباً ، وتربطه في عقدة وتعلقه  
على الجدار . وينطلق جنثر من العقدة ويستنجد بسجنريد ؛ وفي الليلة الثانية  
يتخفى البطل في زى جنثر وينام بجوار برنهيلد ، بينما يكون جنثر نفسه مختبئاً في

حجرة مظلمة يستمع إلى كل شيء ولا يرى شيئاً . وتلقى برنهيلىك بسيجفريد بعيداً عن الفراش وتشتبك معه فى معركة تفرى العظم ، وتحطم الرأس ، ولا تجرى على سنن متبعة . ويقول فى نفسه أثناء المعركة : « واحسرتاه ! لانى إذا مت بيد امرأة فإن الزوجات جميعهن سيحتقرن أزواجهن » . وتهزم برنهيلىك آخر الأمر ، وتعد أن تكون زوجة . وينسحب سيجفريد دون أن يراه أحد حاملاً معه منطقتها وقرطها ، ويحل جنتر محله بجوار الملكة الخائرة القوى . ويهدى سيجفريد المنطقة والقرط إلى كريمهيليلى ، ويأتى بها إلى أبيها ، فيتوجه ملكاً على الأراضى الوطيئة . ويستخدم سيجفريد ما له من ثروة فى سنيلينجن فيلبس زوجته ووصيفاتها من الثياب ما لم تلبسه امرأة أخرى قبلهن .

وتزور كريمهيليلى بعد فترة من ذلك الوقت برنهيلىك فى مدينة ورمز . وتبصر برنهيلىك أبواب كريمهيليلى الغالية فتدب الغيرة فى قلبها ، وتذكرها بأن سيجفريد من أتباع جنتر . وترد عليها كريمهيليلى بأن تكشف لها عن المنطقة والقرط لنثبت لها أن سيجفريد لا جنتر هو الذى غلبها على أمرها . وكان لجنتر أخ نكد غير شقيق يدعى هاجن Hagen ملأ صدره حقداً على سيجفريد ، فأرسل إليه يدعوانه للخروج إلى الصيد . وينحنى سيجفريد فوق مجرى ماء ليروى ظمأه . فيطعنه هاجن بحربة ، وتبصر كريمهيليلى بطلها يلقى منيته « فيغمى عليها وتفقد وعيها طوال ذلك اليوم وتلك الليلة » . وترث كنز نيبلنج بوصفها أرملة سيجفريد ، ولكن هاجن يغرى جنتر باغتصابه منها ، ويدفن جنتر وإخوته هذا الكنز فى نهر الرين ويقسموا ألا يكشفوا لأحد عن مخبئه .

وتظل كريمهيليلى ثلاثة عشر عاماً تفكر فى الثأر لزوجها من هاجن وإخوتها ، ولكنها لا تجد الفرصة التى تمكنها من هذا الثأر ، ثم تقبل ما عرضه عليها إيزل Eizel ( أتلا Atilla ) ملك الهون من زواجه بها ، وتنتقل إلى فينا Vienna لتعيش فيها وتكون زوجة له . « وكان إيزل ذا شهرة عظيمة تجتذب إلى بلاطه

بلا انقطاع أشجع الفرسان مسيحيين وكفاراً على السواء . . . . . وكان الإنسان يرى عنده ما لا يستطيع أن يراه في هذه الأيام - يرى المسيحيين والكفرة جنباً إلى جنب . وكان الملك ندى اليد سخياً على الناس جميعاً أياً كانت عقائدهم ، فلم يكن ثمة أحد لا ينال رفته . وظلت كريمهيلد تحكم البلاد « حكماً صالحاً » مدى ثلاثة عشر عاماً بدا فيها أنها لم تعد تفكر في الانتقام ؛ وبلغ من أمرها أن طلبت إلى إترز أن يدعو هاجن وإخوتها إلى وليمة ؛ ويلبى هؤلاء الدعوة رغم تحذير هاجن ؛ ولكنهم يأتون معهم بحاشية من الفلاحين والفرسان المسلحين . وبينما كان إخوة الملك وهاجن ومن معهم من الفرسان يستمتعون بضيافة حاشية الهون في هو إترز ، إذ يقتل الفلاحون الذين في خارج الهو بأمر كريمهيلد ، ويتلقى هاجن النبأ ، فيستل سيفه ، وتلدور معركة رهيبية في الهو بين البرغنديين والهون ( ولعل القصة ذكرى حربهم الحقيقية التي دارت في عام ٤٣٧ ) . ويطيح هاجن بضربته الأولى برأس أرتليب Artlieb ابن كريمهيلد وإترز البالغ من العمر خمس سنين ويلقى برأسه في حجر كريمهيلد وجنثر . ولما كاد البرغنديون جميعاً يهلكون يطلب جرنوت Gernot أخو كريمهيلد وجنثر إلى إترز أن يسمح للباقيين من الزوار بالخروج من الهو . ويظهر فرسان الهون رغبتهم في إجابة هذا الطلب ولكن كريمهيلد ترفضه ، وتستمر المذبحة ؛ ويتوسل إليها جزهر Gissler أخوها الأصغر الذي كان غلاماً بريثا في الخامسة من عمره لما قتل سيغفريد ويناديها : « أختي يا أجمل النساء ، بأي ذنب أستحق الموت بأيدي الهون ؟ لقد كنت على الدوام وفيالك ، لم تمسك يداي بأذى ؛ ولكني جئت إلى هذا المكان يا أعز الأخوات لأنني وثقت بحبك ، فهلا رحمتي . وترضى كريمهيلد بأن يخرج الباقيون إذا أسلموا هاجن ، فيرد عليها جرنوت بقوله : « ذلك ما يأباه الله في علو سمائه ، خير لنا أن نهلك عن آخرنا من أن نقتدى أنفسنا بواحد منا » . وتخرج كريمهيلد الهون من البناء ، وتغلق الأبواب على من

فيه من البرغنديين ، وتأمربا حرقه . ويجن البرغنديون من فرط الحرارة والظماً فيصيحون من شدة الألم ، فيأمرهم هاجن بأن يطنثوا ظمأهم بشرب دماء القتلى ، فيصدعوا بما يؤثرون ، ويخرج بعضهم من بين الأخشاب الملتهبة المتساقطة ، وتستمر المعركة دائرة في الفناء حتى لا يبقى حياً من البرغنديين غير جنثر وهاجن . ويقاتل ديتريخ Dietrich القوطى هاجن ، وينتصر عليه ؛ ويأتى به إلى كريمهيلد مكبلاً بالأغلال . وتسأله هاجن أين أخفى كنز نيبلينج ، فيجيبها بأنه لن يكشف لها عن ذلك السر ما دام جنثر حياً ؛ ويقتل جنثر ، وكان لا يزال حياً ، بأمر أخته ، ويحمل رأسه إلى هاجن ، ولكن هاجن يتحداها بقوله : « إن مكان الكنز لا يعرفه الآن إلا الله وحده وأنا ، وابن تعرفى هذا السر أيتها المرأة الشيطانة » ؛ فتقبض بيدها على سيفه وتقتله به . وتشتمز نفس هالدبرانند Hildébrand القوطى مما سفكته كريمهيلد من الدماء فيقتلها .

تلك قصة رهيبة تجرى فيها الدماء كما تجرى فى أية قصة أخرى فى عالم الأدب أو فىما هو دونه . وإنا لنظلم هذه القصة بعض الظلم إذا انتزعنا لحظاتها الرهيبة مما يحيط بها من ولائم ، ومثاقفة ، وصيد ؛ وشئون النساء . ولكن هذا هو الموضوع الذى تدور حوادثها حوله - فتاة رقيقة يبدها ما صادفته من الشر امرأة وحشية سفاحه . ومن عجب أنه قلما يبقى فى القصة بعد هذا شيء يقربها من الدين المسيحى ، فهى فى الواقع أساة يونانية تدور حول الانتقام ، ولا تفعل ما تفعله المآسى اليونانية إذ تأبى أن تقع أعمال العنف على المسرح . وتطغى هذه الجرائم على جميع فضائل الإقطاع فلا يكاد يظهر منها شيء حتى إكرام رب الدار أضيافه الذين دعاهم لزيارته ، وليس ثمة ما يفوق وحشية هذه القصة إلا وحشية أيامنا نحن .

## الفصل الخامس

### شعراء الفروسية الغزلون (\*)

في أواخر القرن الثالث عشر ، أى في الوقت الذى كنا نتوقع فيه أن يكون الأدب الأوربي مصطبغاً بالحماسة الدينية التى بعثتها فى الناس الحروب الصليبية ، فى أواخر هذا القرن بالذات نشأت فى جنوبي فرنسا مدرسة من الشعر الغنائى أرسنقراطية ، وثنية ، غير كهنونية ، عليها الطابع العربى ، تنبئ بانتصار المرأة على القيود الثقيلة التى فرضتها نظرية سقوط آدم . وانتقل هذا الطراز الشعرى من طولوز إلى باريس ومن باريس إلى لندن مع إليانور الأكتانية ، واستحوذ على قلب ابنها الباسل رتشرد الأول ، وأوجد المتصيين بالشعر من الألمان ، وصاغ النغمات العذبة الهادئة التى مهدت السبيل إلى دانتي .

ويتلأأ فى بداية هذا الطراز من الشعر وايم التاسع كونت پواتو ، ودوق أكتين ، وجد إليانور نفسها . وألفى هذا الخليع المستهتر نفسه فى الحادية عشرة من عمره ( ١٠٨٧ ) حاكماً لفرنسا الجنوبية يكاد يكون مستقلاً بحكمها ؛ واشترك فى الحرب الصليبية الأولى وتغنى بنصرها ؛ ولكنه كان مثل كثيرين غيره من النبلاء فى أرضه التى طغى عليها الإلحاد ، فكان قليل الإجلال للكنيسة يسخر من قساوستها . وقد وُصف فى ترجمة بروقنسالية له بأنه « من أكثر خلق الله أدباً وظرفاً ، ومن أكثرهم غواية للنساء ، وأنه فارس مغوار ، كثير التورط فى مغامرات الحب ، يجيد الغناء وقرض الشعر ، وقد ظل وقتاً طويلاً يجول فى البلدان ويغوى النساء » (٢٣) . وقد اختطف وهو متزوج كونثة شاتل رول Châtellerault الحسناء ، وعاش معها علناً دون حياء ؛ ولما أمره أنجوليم Angoulême الأصلع

( \* ) Troubadour انظر اشتقاق هذا اللفظ فيما بعد . ( المترجم )

الجرىء أن يقلع عن غيه أجابه بقوله : « سأنبذ الكوننة في الساعة التي يحتاج فيها شعرك إلى مشط » ، والتقى يوماً ما بأسقف بواتيه بعد أن حكم بطرده من الكنيسة وقال له : « اغفر لي وإلا قتلتك » فرد عليه الأسقف وهو يمد له عنقه : « اضرب » ، وأجابه ولیم : « لست أحبك بالقدر الذي يكفي لأن أبعث بك إلى الجنة » (٢٤) . ووضع الدوق طرازاً من الشعر الغزلي يكتب إلى النبيلات ، وكان يفعل ما يقول ، وكانت حياته قصيرة مليئة بالمرح ، فقد مات في السادسة والخمسين من عمره ( ١١٣٧ ) ، وأورث إليانور ضياعه الواسعة وذوقه الشعري والغرامى .

وجمعت إليانور الشعراء حولها في طولوز ، وسرهم أن يتغنوا لها ولحاشيتها بجمال النساء وما تبعته مفاتهن من نشوة . وشرع برنار ده فنتادور Bernard de Ventadour ، وكان شعره في نظر پترارك لا ينقص إلا قليلاً عن شعره هو نفسه ، يتغنى بجمال فيكوننة فنتادور ، وحملت التيكوننة مديحه محمل الجذ فاضطر زوجها أن يحبسها في برج قصره . وشجع هذا برنار فراح يتغنى بجمال إليانور نفسها وتبعها إلى رون Rouen ؛ ولما أن فضلت حب ملكين أفرغ ما في قلبه من هيام في لحن حزين ذائع الصيت ، وبعد جيل من ذلك الوقت أصبح الشاعر الغزلي برتران ده بورن Bertrand de Born صديق رتشرد الأول الحميم ، ومنافسه المتفوق عليه في حب السيدة مينز المرتنياكية Dame Maens of Martignac ؛ وصحب شاعر غزلي آخر يدعى پير فيدال Peire Vidal ( ١١٦٧ ؟ - ١٢١٥ ) رتشرد الأول في الحرب الصليبية ، ورجع سالماً ، وعاش بعد مجيئه فقيراً يقرض الشعر حتى ظفر آخر الأمر بضیعة وهبها له ريمند السادس كونت طولوز (٢٥) . ولدينا أسماء ٤٤٦ شاعراً آخر من الشعراء الغزليين ، ولكن حسبنا هؤلاء الأربعة دليلاً على ما كانت عليه هذه الطائفة المغنية من انحلال .

كان بعض أفرادها موسيقيين أفاقين ، وكانت كثرتهم من صغار النبلاء المولعين بالغناء ، وكان أربعة منهم ملوكاً - رتشرد الأول ، وفردريك الثاني ،

والفنسوا الثاني ، وبدرو الثالث ملك أرغونة . وظل هؤلاء الشعراء قرناً من الزمان ( ١١٥٠ - ١٢٥٠ ) يسيطرون على أدب فرنسا الجنوبية ، ويشكلون عادات الطبقات الأرستقراطية التي كانت تنتقل في ذلك الوقت من الوحشية الريفية إلى الفروسية التي كادت تكفّر بالمجاملات عن آثام الحرب ، وبالظرف والأدب عن الفجور والفسق . وكانت لغة شعراء الفروسية الغزلين هي لانج دك Lsngne Dioc أو لغة الرومان Roman التي كانوا يتكلمون بها في جنوبي فرنسا وشمالى أسبانيا الشرقى . أما اشتقاق اسمهم فهو موضع الخلاف الشديد ، والراجح أن كلمة تروبودور Troubadour مشتقة من الكلمة الرومانية تروبار Trobar ومعناها يجر أو يخترع ، كما أن من الواضح أن الكلمة الإيطالية Trovatore ( تروفاتورى ) مشتقة من تروفارى Torvare ، ولكن من الناس من يقول إنها مشتقة من كلمة الطرب العربية ومعناها الغناء<sup>(٢٦)</sup> . وكانوا يسمون فهم « الحكمة المرحة » gai saber أو gaya ciencia ولكنهم كانوا يرونه من الأعمال الجدية التي تتطلب وقتاً طويلاً من المران على الشعر ، والموسيقى ، وآداب الحديث التي تليق بالفرسان أولى النبيل والشهامة . وكانو يتزيون بزى الأشراف ، ويتشحون برداء طرزت حواشيه بالذهب والفراء الثمينة ، وكثيراً ما كانوا يركبون وهم مدرعون بدروع الفرسان ، ويتسابقون فى ألعاب البرجاس ، ويقاتلون بالرماح والأقلام فى سبيل السيدات اللاتي يقدمون لهن شعرهم وإن لم يقدموا لهن حياتهم . ولم يكونوا يكتبون لغز طبقة الأشراف ، وكانوا عادة يلسحنون بأنفسهم شعرهم الغنائى ويستأجرون المغنين ليغنوه فى المآدب وألعاب البرجاس ، ولكنهم كثيراً ما كانوا هم أنفسهم يعزفون على القيثارة وينفسون بأغنية عن عاطفة مكبوتة .

وأكبر الظن أن العواطف التي كانوا يعبرون عنها لم تكن إلا صورة أدبية ، وأن تحرقهم لم يكن أكثر من رغبة ، وأن مسكنهم مع حبيباتهم فى السماء تعبير عن إشباع رغبتهم ، وأن يأس التروبودور المحزن إن هو إلا رخصة شعرية وأداة للتعبير .

ويبدو أن الأزواج الذين كانوا يسمعون هؤلاء الشعراء يتشبهون بنسائهم لم يكونوا يرون في هيامهم أكثر من هذا ، وأنهم لم يكونوا أكثر حرصاً على أزواجهم من معظم الذكور . وإذا كان الزواج بين الأشراف لا يعدو أن يكون حادثاً من حوادث تداول الثروة ، فقد كان الحب إذا وجد يعقب الثروة لا يسبقها كما يحدث في القصص الفرنسي . وأما ما وجد من الحب في أدب العصور فكان كله من فرنسيسكا Francesca وبيتريس Beatrice في الجنوب إلى إيسلد Isolde وچنيفير Guinevere في الشمال ، حباً حراماً إذا استثنينا منه بعض الأمثلة القليلة . وكان عجز الحب عن الوصول إلى السيدة المتزوجة هو الذي أوجد طائفة التروبادور ، ذلك أن من الصعب خلق رواية غرامية تدور حول الرغبة المشبعة ، وحيث لا توجد العقبات لا يوجد الشعر . ولسنا نسمع إلا عن أفراد قلائل من شعراء الفروسية الغزلين حظوا آخر الأمر بعطف السيدات اللاتي اختاروهن موضوعاً لأغانيهم ، ولكن هذا لم يكن إلا خرقاً للمألوف من القواعد في الشعر ، فقد جرت العادة أن يطفى الشاعر حرقة بقبلة من الحبيبة أو بلمس يدها . وكان هذا التمتع من أسباب الرقة والظرف ؛ ومن أجل هذا انتقل شعر التروبادور - ولعله تأثر في هذا الانتقال بعبادة مريم - من الشهوانية إلى ما يقرب من الرقة الروحية .

لكنهم قلما كانوا رجالاً أتقياء صالحين ، وكان عدم تفهمهم من أسباب التنافر بينهم وبين الكنيسة . وقد ألف بعضهم القصائد في هجو كبار رجال الدين ، وفي السخرية من الجحيم (٢٧) ، والدفاع عن الملاحدة الألبجنسيين ، والإشادة بالحملة الصليبية التي انتصر فيها فرديريك العاصي حيث أخفق لويس الصالح . ولم يرض جولم أديمار Guillem Ademar إلا عن حملة صليبية واحدة ، وكان سبب رضائه عنها أنها أبعدت من طريقه زوج سيدة يتشبه بها . وكان

ريمون چوردن Ra mon Jorden يفضل ليلة يقضيها مع محبوبته عن أية جنة  
تماوية يعدونه بها (٢٨) .

وكانت الصور الإنشائية في نظر شعراء الفروسية الغزلين أجل شأنًا من  
الوصايا الأخلاقية . وكان لكل ضرب من قصائدهم اسم يتسمى به فالطازو  
Canzo أغنية الغرام ، والبلائي plante مرثية لصديق أو حبيب مات ،  
والتنور Tenson حوار مقفى عن الحب ، والأخلاق ، والفروسية ،  
والسرفنتى sirvente أغنية الحرب ، والنزاع والهجوم السياسى ، والسنتنة  
sixtene قصيدة تتألف من ست مقطوعات معقدة القافية ، في كل واحدة منها  
سته أبيات ، اخترعها أرنودانييل Arnaud Daniel وأعجب بها دانتى ،  
والرعوية pastourelle حوار بين شاعر فروسية غزلى وراعية ، والفجرية  
aubade أو alba أغنية الفجر ، وهى فى العادة تنذر العاشقين بأن النهار سوف  
يفضح أمرهم ، والسيرينا أو السرينير serena أو serenade أغنية المساء ،  
والبلادا balada قصة شعرية . وهاهى ذى فجرية لشاعر غير معروف تنطق  
ببعض أبياتها فتاة من فتيات القرن الثانى عشر تذكرنا بچوليت Juliet :

فى حديقة ينشر فيها الشوك الأبيض أوراقه ،

كانت سيدتى يضطجع حبيبها بجوارها

حتى نادى الرقيب بطلوع الفجر - ويلاه الفجر الذى يحزن المحبين !

رباه ؟ يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

\* \* \*

أتوسل إليك يا رب ألا ينقضى الليل ، الليل الحبيب ،

وألا يبتعد عنى حبيبى ،

وَألا ينادى الرقيب « الفجر » - الفجر الذى يقضى على السلام !  
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

\* \* \*

« صديقتى الجميلة الحلوة ، أنيلينى شفيتيك - شفيتينا مرة أخرى !  
ها هى ذى الطيور فى المراعى تشدو  
فليكن نصيبنا الحب ، ونصيب الحسود الألم !  
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

\* \* \*

من تلك الريح الحلوة التى تقبل من بعيد  
شربت حتى ارتويت من أنفاس الحبيب ،  
نعم ، من أنفاس حبيبى المرح العزيز !  
رباه ! يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

\* \* \*

ألا ما أجمل فتاتى وما أظرفها ،  
وما أكثر من يرقبون الطريق الذى يتجلى فيه جمالها  
ولا يطوف بقلبها طائف القدر !  
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً ! (٢٩) .

وقضى على حركة شعراء الفروسية الغزلين فى فرنسا منتصف القرن الثالث عشر ، وكان من أسباب القضاء عليها ما فى صياغتها وعواطفها من تكلف وتصنع أخذتا يتزايدان على مر الأيام ، وما حل بجنوبى فرنسا من دمار بسبب الحروب الدينية الألبجاسية ، فقد تهدمت فى الوقت العصيب كثير من القصور التى كان يأوى إليها شعراء الفروسية الغزلون ؛ ولما أن قاست طولوز نفسها حصاراً مزدوجاً انهار نظام الفروسية هذا فى أكتوبر . وفر بعض المغنين إلى أسبانيا وبعضهم إلى

إيطاليا ، وفيها بعث فن أغاني الحب بعثاً جديداً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، ولم يكن بترارك ودانتي إلا ورثين للتر وبدوور . وكان ما خلفوه من مقالات الشهامة والمرح عوناً على صياغة دستور الفروسية ، وتحويل سكان جنوبي أوروبا الهمج إلى رجال مهذبين ؛ ولقد ظلت الآداب من ذلك الحين تحس بأثر أغانيهم الرقيقة ، ولعل الحب تفوح منه في هذه الأيام رائحة ذكية مستمدة من عطر مديحهم .

## الفصل السادس

### المتصبيون بالشعر من الألمان

انتشرت حركة شعراء الفروسية الغزلين من فرنسا إلى جنوبي ألمانيا حيث ازدهرت في عصر أباطرة هوهنستارفن الذهبي وكان الشعراء الألمان يسمون المنيسانجر Mennisänger أي المتصبيين بالشعر ، ووجد شعرهم في الوقت الذي وجدت فيه في دستور الفروسية المعاصر فرمة المحبوب Minnedienst وفرمة السيدات Fraundienst . ونحن نعرف أسماء ثلاثمائة من هؤلاء المتصبيين ، ولدينا ثروة موفورة من شعرهم ؛ وكان بعضهم من طبقة الأشراف الدنيا ، وبعضهم من الفقراء ، يرعاهم الأباطرة أو الأدواق . وكان كثيرون منهم أميين وإن التزموا قواعد صارمة في الوزن والقافية ، وكانوا يملون ألفاظ أغانيهم وموسيقاها ؛ ولا يزال الشعر يسمى في ألمانيا إلى يومنا هذا دichtung أي الإملاء . وكانوا عادة يتركون المغنين العازفين يغنون أشعارهم ، وكانوا أحياناً ينشدونها بأنفسهم . ويروي لنا الرواة مباراة غنائية Sängerkrieg عظيمة عقدت في قصر وارتبيرج Wartburg عام ١٢٠٧ ، ويقال إن تان هوزر Tannhäuser وولفرام فن إشنباخ Wolfram von Eschenbach اشتركا فيها (٣٠) (\*). وظل المتصبيون قرناً من الزمان يعملون على رفع منزلة المرأة في ألمانيا ، وأضحى نساء طبقة الأشراف الباعثة والملهمة لثقافة أرق من أية ثقافة عرفت تلك البلاد فيما بعد حتى عصر شلر Schiller وجيته .

(\*) لقد خلطت القصص بين تان هوزر ، وهو من المتصبيين المتأخرين ، وبين الفارس تان هوزر الذي فر من فينسبرج Venusberg إلى رومة ووجد له مكاناً صغيراً في إحدى المسرحيات الغنائية .

ويُضَمّ ولفرام وولتر فن در فوچلويد Walther von der Vogelweide إلى طائفة المتصبيين لأنهما كتبا أغاني في الحب ، ولكن الأفضل أن يسلك ولفرام وقصائده المعروفة باسم بارزفال Parzival في سلك كتاب الروايات الغرامية . وكان مولد ولتر « ابن مرج الطيور » في مكان ما في التيرول Tirol قبل عام ١١٧٠ . وكان من طبقة الفرسان ولكنه من فقراهم ، وزاد أحواله سوءاً على سوء بأن اتخذ الشعر صناعة له . ونسمع عنه وهو في سن العشرين يكسب قوته بالغناء في بيوت الأشراف من أهل فينا . وكان وهو في سن الشباب هذه يكتب في الحب كتابة شهوانية طليقة أغضبت منه منافسيه ، ولا يزال الألمان حتى الآن يعتزون بقصيدته تحت شجرة التيليا : Unter den Linden :

تحت شجرة التيليا وعلى الخلنج

كان لنا نحن الاثنين فراش ،

وهنا كنت تبصيرنا وقد التفت حولنا

الأزهار المتقطعة والكأ المشيم ؛

ومن أجمة في الوادي - تندرادي -

يشدو البلبيل بألحانه العذبة .

\* \* \*

وأسرعتُ إليه من خلال الفضاء بين الأشجار ،

ووصل حبيبي إلى المكان قبلي ،

وهناك وقعت في شرك الحبيب - وكنت أسعد الفتيات ،

وحظيت بسعادة ليس فوقها سعادة .

وهناك قبلي مراراً - تندرادي .

انظروا إلى شفتي ما أشد حمرتها !

\* \* \*

وهنا أسرع وهو مغتبط

فأقام لنا عريشاً من الأزهار ،

ولا يزال هذا دعاية زائلة ،

لأن الذين يمرون بهذا الطريق ويرون المكان الذي

وضعت فيها رأسى بين الورود - تندرادي !

\* \* \*

ولو أن إنساناً ( لا قدر الله ! ) كان بالقرب منا

بلحلي العار ، فقد رقدنا هناك سوياً ؟

ولكن هذا لم يعرفه أحد غيرى أنا والحبيب

والعندليب الصغير - تندرادي ! -

وأنا أعرف أنه لن يتم علينا (٣٣)

ونضح تفكيره لما كبر ، وبدأ يرى في المرأة مفاتن ومحاسن أجمل من

بشرتها البضة ، وبدت له فوائد الاتحاد بالزواج أعظم قيمة من التقلب بين

النساء : « ما أسعد الرجل وما أسعد المرأة ، اللذين يرتبط قلباهما بالإخلاص

المتبادل ، واللذين تزداد حياتهما قيمة على مر الزمن ، وبارك الله في بينهما

وجميع أيامهما » (٣٣) . وأخذ يندد بتملق زملائه الشعراء نساء البلاط ، وقال

إن لقب « المرأة » أعظم قيمة لديه من لقب « السيدة » ، وإن النساء

الصالحات والرجال الصالحين هم الأشراف بحق ، وإن « النساء الألمانيات

يضارعن الملائكة في الجمال ، وإن من يذمهن كذاب أشر » (٣٤) .

ومات الإمبراطور هنري السادس في عام ١١٩٧ وعمت الفوضى بلاد ألمانيا

مدى جيل كامل ولم تتقطع إلا بعد أن بلغ فردريك الثاني سن الرشد . ولم يعد

الأشراف يناضرون الأدباء ويبسطون عليهم رعايتهم ، فأخذ ولتر يتنقل من بلاط إلى بلاط يغني غناء البائس الشقي طلباً للقوت ، ينافس فيه المشعوذون والمهرجون الأذلاء . وحسبنا دليلاً على ما كان يعانيه في ذلك الوقت هذه العبارة المنقولة من حساب نفقات ولفجر Wolfer أسقف باسو Passau « خمسة صناديق صرفت في ١٢ نوفمبر عام ١٢٠٣ إلى ووتر فن درفوچلويد ليشتري بها سترة من الفراء يتقي بها برد الشتاء » (٣٥) . وكانت هذه حسنة مضاعفة لأن ولتر جبليتي متحمس ، هجا في شعره البابوات ، وندد بعيوب الكنيسة ، وثار على نقل الأموال الألمانية فوق جبال الألب لتملأ بها خزائن كنيسة القديس بطرس (٣٦) . غير أنه كان على الرغم من هذا مسيحياً صادقاً ، ألف نشيداً عظيماً سماه « نشيد الصليبيين » ، ولكنه كان يستطيع في بعض الأوقات أن يسمو فوق المعارك الحربية ويرى أن الناس كلهم إخوة :

الناس كلهم من أم واحدة

ونحن جميعاً أكفاء من الخارج والداخل ؛

وأفواهنا تطعم كلها بطعام واحد ،

وإذا ما سقطت عظامهم وأصبحت كومة مختلطة

فهل تعرفون يا من تميزون الأحياء بنظرة إليهم

أيهم الدنيء الآن وأيهم الشريف

بعد أن أكل الدود لحومهم وتعرت عظامهم ؟

إن المسيحيين واليهود والكفار كلهم يتعبدون

والله يبسط رعايته على جميع الخلق (٣٧) .

وظل ولتر ربع قرن في تجواله وفقره ، ثم وهبه فردريك الثاني ضيعة

جودخلا ثابتاً (١٢٢١) ، فاستطاع أن يقضى السبع السنين الباقية من حياته

هادئاً مطمئناً . وقد أحزنه أن شيخونخته ومرضه لا يمكنانه من الاشتراك في الحرب الصليبية ، وطلب إلى الله أن يغفر له عجزه عن أن يحب أعداءه (٣٨) . وقد أوصى في قصيدة له بمن يرث ممتلكاته « فللحساد سوء حظي ، وللكاذبين أحزاني وللمحبين الغادرين حماقتي ، وللسيئات آلام قلبي » (٣٩) . ودفن في كاتدرائية ورزبرج Würzburg وأقيم بالقرب منها نصب تذكاري يعلن حب ألمانيا لأعظم شعراء عصره .

وقضى على حركة الشعراء المتصبيين بعد موته ما تورطت فيه من إسراف ومغالاة ، وحل بها ما حل بألمانيا من دمار بعد سقوط فردريك الثاني . ويصف لنا الريبخ فن لختنشتاين Ulrich von Lichtenstein (حوالي ١٢٠٠ - ١٢٧٦) في سيرته الذاتية الشعرية (Frauendienst) كيف نشأ وسط عواطف « خدمة السيدات » . فاختر سيدة لتكون له معبودة ، وخيبت شفته الشرماء ليقلل نفورها منه ، وحارب من أجلها في ألعاب البرجاس . ولما قيل له إنها عجبت حين عرفت أنه لاتزال له إصبع كانت تظن أنه فتمدها في الدفاع عن شرفها ، قطع هذا العضو الآثم وبعث به إليها دليلاً على الولاء والخضوع . وكاد يغمى عليه من شدة الفرح حين أسعده الحظ بشرب الماء الذي غسلت فيه يديها (٤٠) . ولما تلقى منها رسالة ظل يحملها في جيبه عدة أسابيع حتى وجد شخصاً يستطيع أن يثق بأنه سيقروها له سرّاً ، لأن الريبخ كان يجهل القراءة (٤١) . ولما وعدته بأنها ستعطف عليه انتظر وفاءها بوعدها يومين كاملين في ثياب المتسولين بين المجذومين الواقفين بيابها ، ثم أذنت له بالدخول ، ولما تبينت إلحاحه أمرت به فأنزل من نافذة مخدعها في ملاءة سرير . وكان له في ذلك الوقت زوجة وأبناء .

واختتمت حركة الشعراء المتصبيين اختتاماً فيه بعض الكرامة بموت هنريخ فن مايسن Henrich von Meissen الذي أحرز بأغانيه في تكريم

التساء لقب « صراع النساء » . ولما مات في ميوز عام ١٣١٧ حملت نساء المدينة نعشه وأخذن يندبنه حتى وورى التراب في كتدرائية المدينة ، وسكن فوق تابوته خمراً بلغ من كثرتها أن جرت في طول الكنيسة كلها (٤٢) . وخرج فن الغناء بعد موته من أيدي الفرسان إلى أيدي الطبقة الوسطى ؛ وزالت نزعة عباد السيدات الغرامية ، وحل محلها في القرن الرابع عشر مرج جماعة المغنين في المدن وفهم العارمان يرفعان إلى رباب الشعر قيام طبقة الملاك الوسطى .

## الفصل السابع

### الروايات الغرامية

أما في الروايات الغرامية فقد كانت الطبقة الوسطى هي المسيطرة على الميدان ؛ ذلك أن شعراء شمالي فرنسا أبناء الطبقة الدنيا - المعروفين عند الفرنسيين باسم *trouvères* أي المخترعين - كانوا يحميون ليالي الطبقات الوسطى والعليا بقصص شعرية تتحدث عن الحب والحرب ، كما كان شعراء الفروسية الغزلون - *troubadours* والتروفتوري يكتبون الأغاني الشعرية الرقيقة لنساء جنوبي فرنسا وإيطاليا .

وكانت كتابات المخترعين تتخذ صور القصص الشعرية ، *ballade* والأغاني الشعرية *lai* ، والتحدث بأعمال الأبطال *Chanson de geste* ، والقصص الغرامية . وقد وصلت إلينا نماذج جميلة من الأغاني الشعرية من قول كاتبة قدعى إنجلترا وفرنسا كلتاها أنها أول شاعراتها العظيمات . فقد انتقلت *Marie de Franca* ( مارية الفرنسية ) من بريطاني لتعيش في إنجلترا في أيام هنري الثاني ( ١١٥٤ - ١١٨٩ ) . وأشار عليها أن تصوغ عدداً من أقاصيص البريطانيين شعراً ، ففعلت ونخعت عليها من طلاوة اللفظ وقوة العاطفة ما لم يفقها فهما أي شاعر من شعراء الفروسية الغزاليين . ونخليق بإحدى قصائد العاطفية أن تحتل مكاناً في صفحات هذا الكتاب ، هي جديرة به ، لموضوعها غير العادي - حديث المحبوبة الحية إلى حبيبها الميت :

هل أحببتكَ هناك إنسان طوال الصيف والشتاء ؟

وهل وجدتَ هناك جمالا وضع في الفبر معك !

وهل قبلة الميت الطويلة أحلى مما كانت قبلي لك ؟

أو هل انتقلت إلى سعادة بعيدة ونسيتني كل النسيان ؟  
أى نوم رقيق همت به فلفك لفماً رقيقاً ؟  
وأى موت ساحر أغواك بقوته العجيبة فاستحوذ عليك بالليل والنهار ؟  
إنك ترقد في بقعة صغيرة تحت الكأأ بعيدة عن الشمس والظلال  
ولكنها لشدة حزني بعيدة عنى بعد السماء ...  
ستظل ترقد في ذلك المكان كما ترقد الآن  
وإن كان في العالم العلوى شخص آخر يحيا حياتك مرة أخرى  
ويحب حبيبتك كما كنت تحبها .  
أليس مقامك حلواً تحت النخيل ؟  
أليس اليوم الدفء الهادئ الطويل الجميل الذى لا يعرف كنهه  
خيراً من الحب ومن الحياة ؟  
ألا ما أشبه أوراق الشجر العطرة العريضة العجيبة  
بالأيدي تنسج برد الليل إلى نهايته ،  
تنسج النوم الذى لا يستطيع الطير البراق مقاومته ،  
أما أنت فالموت ينسج لك النوم  
ويسلبك فى الصباح وفى الظهر  
كثيراً من الأنفاس العجيبة القوية .  
ويقيني أنك وأنت فى هذا المكان  
قد وجدت الموت إغماء لذيذاً .

لا تستمسك من هذه الساعة بكلمة قلها أو غنيها  
فما من شك فى أنك قد سمعت من زمن بعيد أغاني كثيرة أعذب منها ،  
لأن التربة الخصيبة قد وصلت بلاريب إلى قلبك ، وحولت إيمانك أزهاراً ،  
واختلست الريح الدفئة شيئاً فشيئاً روحك أثناء للساعات الغادرة .  
ووجدت كثير من البذور الطرية نربة من التفكير المثمر

أنبتت زهرة تستقبل الشمس ، ولولاها لما استقبلتها ،

ولا ريب في أنك قد استمعت إلى كثير

من العواطف القوية الجائشة

التي جعلت ذلك الموضوع أجمل مما كان

وجعلت جزءاً من عواطفك لا يحنو على هناك (٤٣) .

وربما نشأت أغاني الأفعال من قصص الحوادث أو الأغاني . فكان  
الشاعر ينسج حول حادث تاريخي ، يأخذه عادة من المؤرخين الإخباريين ،  
قصة من المغامرات الخيالية يرويها في أبيات ذات عشرة مقاطع أو اثني عشر  
مقطعاً ، وتبلغ من الطول ما لا تتسع له إلا ليالي الشتاء في الشمال . ولقد  
كانت أغنية رولان مثلاً متقدماً لهذه الأغاني . وكان البطل المحبب لأغاني  
الأفعال الفرنسية هو شارلمان ؛ وقد أفاد الشعراء الغزلون الفرنسيون  
من عظمته التاريخية فرفعوه في شعرهم إلى درجة من العظمة لا يكاد  
يسمو إليها آدمي ، فبدلوا هزيمته في أسبانيا فتحاً سبيناً ، وسيروه في  
حملات مظفرة إلى القسطنطينية ؛ وبيت المقدس ، ومن حول لحيته  
البيضاء الخرافية هالة من العظمة والجلال . وكانت الأغاني الفرنسية  
مرآة ينعكس عليها عصر الإقطاع في موضوعاته ، وأخلاق أهله ،  
وأمزجتهم . وكما كان بيولف والنيبلنجلويد يرددان أصداً « عصر  
الأبطال » في زمن المهجرات ، كانت هذه الأغاني الفرنسية - أيا كان  
موضوعها ، أو مكانها أو زمانها - تتحرك في جو إقطاعي إلى أهداف  
إقطاعية في أثواب إقطاعية . وكان موضوعها الذي لا تنفك تردده  
هو الحرب ، بين سادة الإقطاع ، أو بين الدول ، أو الأديان ، ولم  
تكن المرأة والمحب يجدان بين قعقة السيوف إلا أصغر مكان :

ولما صلحت أحوال النظام الاجتماعى ، وارتفعت منزلة المرأة على أثر ازدياد الثروة ، تخلت الحرب عن مكانها فى هذه الأغاني للحب ، فأضحى هو موضوع الشعراء الرئيسى ، فلما كان القرن الثانى عشر حلت القصص الغرامية محل أغاني الأفعال ، وجلست على عرش الأدب ، وظلت تجلس عليه قرونًا عدة . وكان اللفظ الفرنسى roman المقابل للرواية الغرامية يعنى فى أول الأمر أى مؤلف مكتوب باللغة الفرنسية التى كانت تسمى هى الأخرى رومان Roman دليلًا على أنها من تراث الرومان الأقدمين . ولم تكن القصص الغرامية Romances تسمى فى اللغة الفرنسية بهذا الاسم لأنها قصص وجدانية ، بل كان الأمر عكس هذا أى أن بعض العواطف أضححت توصف بأنها رومانسية romantic ( وجدانية ) لأنها كثيراً ما كتبت بهذه اللغة الرومانية roman الفرنسية . فكانت رواية الوردة Roman de la rose أو طروادة le Troie أو الثعلب de Renard لا تغنى أكثر من قصة عن وردة ، أو عن طروادة ، أو عن ثعلب باللغة الرومانية أى الفرنسية الأولى ؟ وإذ كانت كل صورة أدبية يجب ألا تولد فى عرف الأدباء إلا من أبوين شرعيين ، فإن لنا أن نعزو أصل الروايات الغرامية إلى أغاني الأفعال ممتزجة مع ما كان فى قصائد شعراء الفروسية الغزلين من عواطف الغرام . ولعل بعض مادة هذه القصص قد أخذت من الروايات اليونانية مثل إثيوبيا Ethiopica لهليودورس Heliodorus . وكان لكتاب واحد يونانى ترجم إلى اللغة اللاتينية فى القرن الرابع أثر عميق فى هذه الناحية ، ونعنى به سيرة الإسكندر الخيالية التى تعزى زورا إلى كلسثينز Callisthenes مؤرخه الرسمى . ذلك أن القصص التى تروى عن الإسكندر أضححت المعين المحبب الذى لا ينضب للفيض المتتابع من «سلاسل» الروايات التى انتشرت خلال العصور الوسطى فى أوربا وفى بلاد الشرق الناطقة باللغة اليونانية . وكانت أجمل صورة لهذه القصة فى بلاد الغرب رواية الإسكندر

Roman d'Alixandre من تأليف الشاعرين الغزليين لامبيرلى تور Lambert li Tors وإسكندر البرنابي Alexander of Bernay حوالى عام ١٢٠٠ . وتقع هذه الرواية فى عشرين ألفاً من الأبيات الأثنى عشرية المقاطع ، أى من البحر المعروف بالبحر « الإسكندرى » .

وأكثر من هذه تنوعاً وأرق منها عاطفة سلسلة الروايات الفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية التى أخذت موضوعاتها من حصار طروادة . وكان أكبر ملهم لهذه الروايات هو فرجيل لاهومر . وكانت القصة التى كتبها ديدو Dido رواية غرامية حقة وإن جاءت فى هذا الوقت البعيد . ألم يستوطن الطرواديون الفارون من هزيمة هم غير خليقين بها فرنسا ، وإنجلترا ، كما استوطنوا إيطاليا ؟ ثم قام حوالى عام ١١٨٤ شاعر فرنسى غزلى يسمى بنواده سانت مور Benoît de Ste-Maure بإعادة قصة طروادة فى ثلاثين ألف بيت من الشعر ، ترجمت إلى أكثر من عشر لغات ، ودخلت فى آداب أكثر من عشر أمم . وفى ألمانيا كتب ولفرام فن إسشنيباخ Wolfram von Eschenbach قصة حصار طروادة التى لا تقل فى حجمها عن الإلياذة نفسها ، وفى إيطاليا أخذ بوكاشيو Boccaccio من بنواده سانت مور قصة فيلوستراتو Filostrato ؛ وفى إنجلترا كتب ليامون Layamon قصة بروت Brut ( حوالى عام ١٢٠٥ ) فى ٣٢٠٠٠ بيت وُصف بها تأسيس لندن على يد بروتس ابن حفيد إينياس Aeneas ؛ ومن بنواده سانت مور قصة ترويلس وكرسيدى Troilus and Criseyde لتشوسر ومسرحية شيكسبير .

وكانت السلسلة الثالثة العظيمة من روايات العصور الوسطى الغرامية هى روايات آرثر Arthur . ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن آرثر هذا نبيل مسيحي إنجليزى ، حارب الغزاة السكسون فى القرن السادس . ولسنا ندرى من هو الذى خلق منه هو وفرسانه تلك القصص البديعة المطربة التى لم يتذوق جمالها

إلا محبو مالورى Malory وحدهم ؟ ومنذا الذى ابتدع جاوين Gawaine  
وجالاهاد Galahad وپرسقال Perceval ، ومرلين Merlin وچنثير  
Guenevere . ولانسلت Lancelot ، وترسترام Tristram ، وفروسية  
المائدة المستديرة Round Table ذات الصبغة الدينية المسيحية ، وقصة  
الكأس المقدسة Holy Grail (\*) ؟ لم يصل الأدباء إلى جواب مؤكد عن  
هذه الأسئلة بعد نقاش دام مائة عام كاملة ، ذلك أن البحث يقضى على  
الحقيقة المؤكدة (\*\*). ونجد أقدم إشارة لآرثر فى كتب المؤرخين الإخباريين  
الإنجليز ، وتظهر بعض عناصر قصته فى أفهار نديوس Nenius ( ٩٧٦ ) ،  
ووسّع نطاق هذه القصة فى التاريخ البريطانى Historia Britonum لچوفرى  
المنموثى Geoffrey of Monmouth ؛ وصاغ قصة چوفرى شعراً فرنسياً  
ربرت ويس Robert Wace وهو شاعر غزلى من چرسى Jersey فى ا واية  
بروتس الإنجليزى Le Brut d'Angleterre ( ١١٥٥ ) ؛ وفيها نجد للمرة  
الأولى قصة المائدة المستديرة . والراجع أن أقدم أجزاء متقطعة لهذه القصة  
هى بعض قصص ويلز التى جمعت الآن فى مابنوجيون Mabinogion ؛  
وأقدم مخطوطات عثرنا عليها للقصيدة بعد نمانها وتطورها مخطوطات فرنسية .  
والإجماع منعقد على أن مكان بلاط آرثر والكأس المقدسة فى ويلز والجنوب  
الغربى من بريطانيا . وأقدم رواية كاملة منشورة للقصة هى التى نجدها فى  
مخطوط إنجليزى يعزى إلى ولتر ماپ Walter Map أحد كبار شامسة  
أكسفورد ( ١١٣٧ - ١١٩٦ ) وإن كان هذا مشكوكاً فى صحته . وأقدم  
صياغة شعرية لهذه السلسلة هى التى نجدها فى روايات Romans كريتيان  
ده تروى Chretien de Troyes ( حوالى ١١٤٠ - ١١٩١ ) .

(\*) الكأس التى استعملها المسيح فى العشاء الأخير . ( المترجم )

(\*) يريد فى أغلب الظن ما كان يظنه الناس حقيقة مؤكدة . ( المترجم )

ولسنا نعرف عن حياة كريتيان إلا قدراً ضئيلاً لا يكاد يزيد على ما نعرفه عن حياة آرثر . نعرف عنه أنه ألف في بدء حياته الأدبية قصة مفقودة تدعى **ترستانه Tristan** . ووصات هذه القصة إلى يدي الكونتة ماري ده شيماني **Marie de Champagne** ابنة إليانور الإكتانية ، ويلوح أنها قد بعثت في قلبها الأمل بأن كريتيان هو الرجل الخليق بأن يصوغ « الحب الرقيق » ، وأنبل المثل العليا للفروسية في صورة الرواية الغرامية . واستدعته ماري لأن يكون شاعرها الغزلي - إذا صح هذا التعبير - في بلاطها بتروى **Troyes** . وكتب وهو في رعايتها ( ١١٦٠ - ١١٧٢ ) أربع روايات غرامية في شعر مقفى ( الشعر الدوبيت العربي ) كل بيتين منه ذوا قافية واحدة ، وفي كل بيت ثمانية مقاطع . وهذه الروايات هي **إريك وائير Eric et Enide** و **كايجه Cligès** ، و **أيفين Yvaine** و **فارس العرب Le Chevalier de la Charette** - ولم يجد هذا الشاعر عنواناً أرقى من هذا لقصة « الفارس الكامل » لانسلت **Lancelot** . وبدأ في عام ١١٧٥ أثناء إقامته في بلاد فليب كونت فلاندرز رواية كونت دل جرال **Conte del Graal** أو پرسفال له جالوا **Perceval le Gallois** ، وكتب منها ٩٠٠٠ بيت وتركها ليتمها غيره في ٦٠٠٠٠ بيت . ويظهر جو هذه في القصص بداية **إريك** :

عقد الملك آرثر في يوم عيد الفصح مجلساً للبلاط في **كاردجان Cardigan** ، ولم يشهد الناس قبل ذلك الاجتماع حاشية أغنى من حاشيته ، فقد حضر الاجتماع كثيرون من صفوف الفرسان الأقوياء ، البواسل ، ذوى الجرأة والشجاعة ، كما اجتمع منها كثيرات من النساء والفتيات ذوات الثراء الواسع ، وبنات الملوك ذوات الرقة والجمال . وقبل أن ينفذ الاجتماع في ذلك اليوم أبلغ الملك فرسانه أنه يرغب في أن يخرج في اليوم الثاني لصيد الوعل الأبيض ؛ وكان ذلك استمساكاً منه بالعادة القديمة . فلما سمع لورد جاوين هذا غضب أشد الغضب وقال : « مولاي !

لن يعود عليك من هذا الصيد ثناء ولا رضاء . فنحن نعرف من زمن بعيد ما هي هذه العادة عادة الوعل الأبيض : نعرف أن من يقتل الوعل الأبيض يجب أن يقبل أجمل فتاة في حاشيتك . . . ولكن هذا قد يؤدي إلى شر مستطير ، لأن في هذا المكان خمسمائة فتاة من ذوات الحسب والنسب ، . . . وما من واحدة منهن إلا لها فارس جرى مغوار ، على استعداد لأن يعلن بالحق أو بالباطل أن السيدة التي هو متم بها أروعهن كلهن جمالا وأعظمن رقة . فأجابه الملك بقوله : « إني أعلم هذا حق العلم ، ولكن علمي به لا يحول بيني وبين تنفيذ ما اعزمته . . . وسنذهب غداً لنصيد الوعل الأبيض وسيكون ذلك اليوم يوم بهجة ومرح » (٤٤) .

وفي بداية الرواية أيضاً نجد المبالغات القصصية الممتعة . « لقد عمدت الطبيعة في تكوين إنيد Enide إلى كل ما لديها من حذق ، ودهشت الطبيعة خمسمائة مرة من نجاحها في إبداع هذا المخلوق الكامل » . ويقال في قصة لانسلت إن « المحب الكامل مطيع على الدوام ، يسارع إلى تنفيذ رغبات حبيبته وهو مسرور . . . والألم ( في سبيلها ) محبب إليه ، لأن الحب الذي يهديه ويقوده في سبيله يخفف هذا الألم بل يمحوه » (٤٥) . غير أن الكوننة ماري كان لها في الحب رأى فيه شيء من المرونة :

إذا وجد الفارس فتاة أو عنراء مهجورة ، وإذا كان يعنى بسمعته الطيبة ، فإن نفسه لا تطاوعه بأن يعاملها معاملة غير شريفة إلا بقدر ما تطاوعه لأن يقطع عنقه . وإذا ما هاجمها فإنه سيجلل بالعار في كل بلاط ، أما إذا انتزعها منه وهي تحت حراسته بحد السلاح فارس آخر اشتبك معه في معركة ، فإن من حق هذا الفارس الثاني أن يفعل بها ما يريد دون أن يجلله عار أو يستحق من أجله لوماً (٤٦) .

وشعر كريتيان ظريف ولكنه ضعيف ، وسرعان ما يمل الإنسان ثقله وكبرته في عصر السرعة الحديث . لكنه يمتاز بأن فيه أكمل تعبير باق حتى اليوم عن المثل الأعلى للفروسية ، وذلك في الصورة التي رسمها الكاتب للحاشية

تبدو فيها المجاملات ، والشرف ، والبسالة والإخلاص للحبيب أجل قدراً من الكنيسة أو العقيدة . ولقد أثبت كريتيان في روايته الأخيرة أنه خليف باسمه(\*) ، ورفع سلسلة الروايات التي تدور حول الملك آرثر إلى الذروة العليا بأن أضاف إليها قصة الكأس المقدسة(\*\*) فقد جاء في القصة أن يوسف الأريماثيائي Joseph of Arimathea تلقى بعض دم المسيح المصلوب في وعاء شرب منه المسيح نفسه أثناء العشاء الأخير ؛ وجاء يوسف أو واحد من نسله بهذا الوعاء والدم الخالد إلى بريطانيا ، حيث احتفظ به ملك مريض سجين في قصر نحى عجيب ، ولن يعثر على الكأس ويطلق سراح الملك بسؤاله عن سبب مرضه إلا فارس كملت طهارة حياته وقلبه . وتقول قصة كريتيان إن پرسقال الغالي أخذ يبحث عن الكأس ، أما الصيغة الإنجليزية للقصة فتقول إن الذي أخذ يبحث عنها جلاهاد الابن الطاهر للانسلاوت الماوث . وتتفق القصتان في أن الذي عثر عليها صعد بها إلى السماء . وفي ألمانيا بدل ولفرام فن اسشنيباخ پرسقال فجعله پارفيزال Parvizal وأعطى القصة أشهر صورة كانت عليها في العصور الوسطى .

وولفرام هذا فارس باقارى (حوالى ١١٦٥ - حوالى ١٢٢٠) كان يكسب قوته بشعره ، ثم وجد له نصيراً فى هرمان Hermann أمير ثورنجيا Thuringia ، وأقام فى قصر وارترج Wartburg عشرين عاماً ، وكتب أشهر قصيدة فى القرن الثالث عشر . وما من شك فى أنه كان يملها إملاء لأن الرواة يؤكدون لنا أنه لم يتعلم قط القراءة . وهو يقول إنه لم يأخذ قصة پارزيفال عن كريتيان بل أخذها عن شاعر پروفنسالى يدعى كيو Kiot . ولسنا نعرف شاعراً يسمى بهذا الاسم ، كما أننا لا نعرف أحداً تعرض لهذه القصة بين زمنى كريتيان (١١٧٥)

(\*) أى بأنه مسيحي صميم . (المترجم)

(\*\*) Holy Grail ويقال إن لفظ Grail مأخوذ من لفظ Gratalis المشتق من اللفظ

اللاتينى crater ومعناه الكأس .

ووافرام ( ١٢٠٥ ) . ويبدو أن أحد عشر « كتاباً » من « كتب » قصيدة ولفرام البالغ عددها ستة عشر تعتمد على قصة كونت دل هيرال Conte del Graal لكريتيان ، ولم يكن المسيحيون الصالحون والفرسان الأنجاد من رجال العصور الوسطى يرون أن من واجبهم أن يعترفوا بما عليهم من ديون أدبية ، بل إن الكتاب كانوا يرون أن مادة الروايات الغرامية ملك مشاع ، من حق كل من يشاء أن يستعيرها إذا كان في وسعه أن يرقى بها ، ولقد فاق ولفرام في هذه الناحية أستاذه كريتيان .

وإيرزيقال في قصة ولفرام ابن فارس من أنجو Anjou رزقه من الملكة هرزيليد Herzeleide ( الحزينة القلب ) حفيدة تيتورل Titurel - أول حراس الكأس - وأخت أمفورتاس Amfortas الملك المريض في ذلك الوقت . ويبلغها قبل أن تلد إيرزيقال بقليل أن زوجها خر صريعاً في معركة بين الفرسان أمام الإسكندرية . وتعتزم ألا تعرض إيرزيقال للموت وهو صغير السن ، فتربيته في عزلة في الريف ؛ وتحنى عنه أصله الملكي ، وينشأ جاهلاً بفنون القتال وحمل السلاح :

وحزن لذلك أهلها أشد الحزن ، لأنهم رأوه عملاً مشنوماً ،

وقالوا إن هذه النشأة لا تليق قط بابن ملك عظيم ،

ولكن أمه أخفته في أودية الغابات البرية ،

وحال حبها وحزنها بينها وبين التفكير في مبلغ إساءتها للطفل الملكي .

فلم تعطه قط سلاحاً من أسلحة الفرسان إلا ما كان يصنعه لنفسه

في أثناء لعبه من الأعشاب التي تنبت في طريقه المنعزل .

فقد صنع لنفسه منها قوساً وسهاماً ، يقذف بها ،

وهو مرح غافل عن التفكير ،

الطيور وهي تشدو فوق رأسه على الأشجار المورقة .

فلما أن سقط طير الغاب المغرد ميتاً عند قدميه ،  
مال برأسه ذى الشعر الذهبي في دهشة وحيرة صامتة ،  
واندفع في غضب الطفولة وحيرتها الصامتة يقتلع غدائر شعره الذهبي ؛  
( فأنا أعلم حق العلم أنه لم يكن على ظهر الأرض كلها من يضارعه  
في جماله )

وطاف بعقله أن الموسيقى التي ظل طول حياته يعزفها بيده  
قد ملأت بأنغامها العذبة قلبه نشوة ، فأحزنه هذا التفكير وأمضه (٤٧) .  
ويبلغ پارزيقال طور الرجولة وهو قوى الجسم فارغ العقل ، حتى تقع عينه  
في يوم من الأيام على فارسين في الطريق ، فيعجب بدروعهما البراقة ، ويظنهما  
إلهين لافارسين ، ويعتزم أن يكون له مثل ما لهما من رونق وبهاء . ويعود  
إلى موطنه ليبحث عن الملك آرثر الذي يجعل الرجال فرساناً ، وتخزن أمه لذهابه  
حزناً يكاد يقتلها . ويلتقي پارزيقال في طريقه بدوقة نائمة فيختلس منها قبلة ،  
ويسلبها منطقتها ، ونحاتها ، ويرتكب بعمله هذا إثماً يدنسه سنين طوالاً .  
ثم يلتقي بإيثر Ither ، الفارس الأحمر ، ويرسل معه هذا الفارس رسالة  
يدعو فيها الملك آرثر للقتال . ويدخل پارزيقات على الملك ويستأذنه في أن  
يجيب هو دعوة إيثر ، فيأذن له ويعود إلى إيثر ، ويقتله - لأن الحظ في  
القصص يكون في جانب المبتدئ - ، ويلبس دروعه ، ويركب طلباً  
للمغامرات ، ويطلب إلى جرنمانز Gernemanz في أثناء الليل أن يستضيفه ،  
ويعجب به البارون الشيخ ، فيعلمه أساليب القتال الإقطاعية ويسدى إليه  
نصيحة الفرسان :

اشفق على المحتاجين ، وكن رحماً ، كريماً ، متواضعاً . إن الرجل الكريم  
المحتاج يستحي أن يسأل ، فتقدم إليه أنت بالعون قبل أن يسألك . . . ولكن  
كن حازماً لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط . . . لا تكثر  
من السؤال ، ولا ترفض الإجابة عن سؤال تخليق أن تسأله . لاحظ واستمع . . .  
أعف عن من يستسلم لك مهما تكن إساءته إليك . . . تخلق بأخلاق الرجولة

وكن مرحباً . . . احترم النساء وأحبهن ، فذلك مما يزيد في شرف الشاب —  
كن ثابتاً غير متقلب فإن الثبات من شيم الرجال . ألا ما أقل ما ينال من  
الثناء شخص يخون الحب الشريف (٤٨) .

ويخرج پارزيقال مرة أخرى في طلب المغامرات ، ويفك الحصار  
عن كندورامور Kondurramur ، ويتزوجها ، ويتحدى زوجها بعد  
عودته ، ويبارزه ، ويقتله ، ثم يترك زوجته لبحث عن أمه . وتشاء  
الصدف أن يصل إلى قصر « الكأس المقدسة » فيستضيفه حراسه الفرسان ،  
وتقع عينه على الكأس ( والكأس في هذه القصة حجر ثمين ) ، ويذكر  
نصيحة جورنماتز الطيب ، فلا يسأل عن الكأس المسحورة أو الملك المريض ،  
ولم يكن يعرف أنه عمه . ويصحو في صباح اليوم الثاني فيجد القصر كله  
خاوياً على عروشه ؛ فيخرج على ظهر جواده ، وترفع أيد مجهولة الجسور  
الموصلة إلى القصر كأنها تنهات عن العودة إليه . وينضم مرة أخرى إلى بلاط  
آرثر ، ولكن العرافة كندري Kondury تهمة في أثناء هذا الترحيب  
بالجهل وقلة الأدب لأنه لم يسأل عن سبب علة أمفورتاس ، ويقسم  
پارزيقال أن يعود مرة أخرى لطلب الكأس .

ولكن سورة من الغضب تظلم عليه حياته في تلك الساعة . فهو يشعر  
أنه غير جدير بما وجهته إليه كندري من تقريع ، ويدرك كثرة ما في العالم من  
مظالم ، ويخرج عن طاعة الله ، ويظل أربع سنين لا يزور كنيسة ، ولا ينطق  
بصلاة (٤٩) . وتصيبه في تلك السنين مائة من الكوارث ، ويظل يبحث عن  
الكأس ولكنه لا يجدها . ثم يعثر في يوم من الأيام على خلاوة ناسك يدعى  
تريفريزنت Treverezent ويتبين أنه عمه ، ويعرف منه قصة الكأس ، وأن  
علة أمفورتاس التي تفارقه سببها أنه ترك حراسة الكأس ليشغل نفسه بحب غير  
مشروع . ويعيد الناسك پارزيقال إلى الدين المسيحي ، ويتحمل عنه عقاب  
ذنوبه . وهكذا يهون پارزيقال على نفسه ، ويتطهر من خطاياها ، وجهله وينجيها

عذابه من آثامه ، فيعود إلى البحث عن الكأس المقدسة . ويكشف الناسك إلى كندري أن پارزيقال ابن أخي أمفورتاس ووارث ملكه ، فتبحث عنه وتعلن إليه أنه اختير ليخاف أمفورتاس على العرش وليكون حارساً على الكأس . ثم تقوده إلى القصر الخفي ، ويسأل أمفورتاس عن سبب مرضه ، ويشنى الملك الشيخ لساعته . ويجد پارزيقال زوجته كندوبرامور وتأتي إليه لتكون ملكته . ويرزقان بولد يدعى لوهنجرين Lohengrin .

وكأنما أراد جتفرايد السلزبرجي Gottfrind of Salisburg أن يمد قاجر Wagner بموضوع آخر لمسرحياته الموسيقية ، فأخرج حوالى عام ١٢١٠ أعظم تراجم قصة ترستان نجاحاً . وهذه القصة تمجد الزنا وعدم الوفاء تمجيداً حماسياً ، وتندد بالدستور الأخلاقي الإقطاعي والمسيحي على السواء .

ولد ترستان ، كما ولد پارزيقان ، لأم صغيرة السن تدعى بلانش فليور Blanche fleur ( الزهرة البيضاء ) ولما يمض إلا وقت قصير على نبأ يأتها بأن زوجها الأمير قتل في معركة . ولهذا تسمى الطفل ترستان - أى الحزين - وتموت بعد مولده . ويكفل الولد عمه مارك Mark ملك كورنول Cornwall ويجعله من الفرسان . ولما بلغ أشده واستوى نبغ في ألعاب البرجاس وقتل مورولد Morold خصيمه الأيرلندي ، ولكنه يجرح في المعركة جرحاً مسموماً يقول له عنه مورولد وهو يحتضر إنه لا يشفيه إلا إيزيولت Isenlt ملكة أيرلندة . فيتخفى في زى تانتريس Tantris العازف على التيثارة ، ويزور أيرلندة وتشفيه ماكتها . ويعين مربياً لابنة الملكة واسمها أيضاً إيزيولت . وينود بعدئذ إلى كورنول ويحدث مارك عن جمال إيزيولت الصغيرة وحسن صفاتها وأدبها ، ويرسله مارك مرة ثانية ليخطب له هذه الفتاة . وتأتي إيزيولت أن تنارق وطنها ، وتتبين أن ترستان هو قاتل عمها مورولد فيمتلي قلبها حتماً عليه ، ولكن أمها تمنعها بالرحيل ، وتعطى وصيفتها برنجين Brangane شراباً مسحوراً يبعث الحب

في القلوب لتسقيه إيزيولت ومارك لتستثير به حبهما . وتخطئ الوصيفة فتسقيه إيزيولت وترستان فلا يلبث الاثنان أن يحتضن كلاهما الآخر ، وتكثر الخيانات ويتفقان على أن يخفيا حبهما ؛ وتزوج إيزيولت مارك ، وتنام مع ترستان ، وتدبر مكيدة لقتل برنجين لأنها تعرف أكثر مما ينبغي أن تعرفه . ومارك هو الرجل الشهم النبيل في هذه القصة ( وليس الأمر كذلك في قصة مالورى ) ؛ فهو يكشف الخديعة ، وينجبر إيزيولت وترستان أنهما أعز عليه من أن ينتقم منهما ، ويقنع في ذلك بنفى ابن أخيه من البلاد . ويلتقي ترستان في تجواله بإيزيولت ثالثة ويقع في حبها ، وإن كان قد أقسم أن يكون هو ومملكة مارك « قلباً واحداً ، وروحاً واحدة ، وجسماً واحداً ، وحياة واحدة » . وهنا يترك جتفرايد القصة ناقصة حطمت فيها جميع المثل العليا للفروسية . أما بقية القصة فمن صنع مالورى وعصر متأخر .

وأخرجت ألمانيا في هذا الجيل العجيب ، الجيل الأول من القرن الثالث عشر شاعراً آخر يكون هو وولتر ، وولفرام ، وجتفرايد أربعة لا يدانيهم أربعة سواهم في أى مكان آخر في أدب العالم المسيحى في أيامهم . بدأ هارتمان فن أو Hartman von Aue بتقليد كريتيان تقليداً أعرج في

روايته الشعريتين إرك Erec و إوين Iwein ولكنه لما انتفت إلى أقاصيص بلاده سوابيا Swabia أخرج آية فنية صغرى هي Der arme Heinrich ( حوالى عام ١٢٠٥ ) . وكان « هنرى المسكين » كما كان أيوب رجلاً غنياً يصاب وهو عنفوان مجده بداء الجذام ولا يستطيع أن يشفيه منه إلا موت عذراء طاهرة من أجه ( إذ لا بد أن يقول السحر في العصور الوسطى كلمته في القصص ) . ولا يتوقع هنرى أن يجد هذه التوضيحية فيستسلم للحزن واليأس ، ولكن فتاة هذه صفاتها في الوجود ، تعزم أن تموت كى يشفى هنرى من دائه الوبيل . ويظن أبواها أن قرارها هذا موحى

به من عند الله فيوافقان على هذا العمل الذي لم يكن أحد يظن أنهما سيوافقان عليه ، وتكشف الفتاة عن صدرها الجميل للنصل . ولكن هنريخ تدب فيه نخوة الرجولة على حين غفلة ، فيأمر بالقتل الفتاة ، ويرفض هذه التضحية ، ويمتنع عن العويل ، ويرتضى آلامه معتقداً أنها من عند الله ، وتبدل روحه بفضل هذه النزعة الجديدة ، فيزول مرضه الجثامي زوالاً سريعاً ، ويتزوج الفتاة التي أنقذته ويعوض هارتمان القصة عما فيها من سخف وبعد عن المعقول بشعره البسيط الساس الخالي من التكلف ، وقد احتفظت ألمانيا بهذه القصيدة حتى هذا العصر القليل الإيمان .

وثمة قصة أجمل منها كتبها شاعر فرنسي غير معروف في وقت ما في النصف الأول من القرن الثالث عشر وسماها *هذه أو كسان ونيقولا* *C'est d'Aucaassin et Nicolette* . والقصة نصفها رواية غرامية ، ونصفها سخرية من الروايات الغرامية ، صيغت كما يليق بها أن تصاغ تارة شعراً وتارة نثراً ، ووضعت لها علامات موسيقية بين النصوص الشعرية .

ونخلصها أن أو كسان ابن الكونت بوكير *Beucaire* يغرم بنيةقولا متبناة فيكونت بوكير . ويعارض الكونت في زواجه بها لأنه يريد أن يزوج ابنه من أحد البيوت الإقطاعية التي تستطيع أن تملكه بالعون في الحرب ، ويأمر تابعه الفيكونت أن يخفي الفتاة . ويريد أو كسان أن يراها فيشير عليه الفيكونت أن « يدع نيقولا وشأنها وإلا فلن يرى الجنة قط » . ويرد عليه أو كسان رداً يتفق مع نزعة التشكك التي أخذت تنشر في الوقت :

ما شأنى أنا والجنة ؟ إني لا يهمنى قط أن أدخلها ، وكل الذى يهمنى أن أحظى بنيةقولا ... ذلك أن الجنة لا يدخلها إلا القساوسة الطاعنون في السن ، والشيوخ المقعدون ، والمرضى الذين لا يبارحهم السعال ليلاً أو نهاراً أمام مذابح الكنائس ... أما أنا فلا شأن لى بهؤلاء ، بل إني أريد أن يكون مأواى الجحيم ، لأن الجحيم مشوى العلماء الظرفاء ، والفرسان الأنجاد الذين يقتلون في ألعاب

الفروسية أو الحروب العوان ، كما هي مأوى النابل القوى والرجل الوفي ،  
إني أريد أن أكون مع هؤلاء . وإليها تذهب السيدات الحسان الظريفات  
اللاتي لكل منهن أصدقاء - اثنان أو ثلاثة - زيادة على زوجها . وفيها يمر  
العازفون ، والمغنون ، وملوك العالم . سأذهب مع هؤلاء إذا كانت تقولت  
صديقتي الحلوة الجميلة إلى جانبي .

ويغلق والد يقولت باب حجرتها عاينها ، كما يجلس والد أوكسان ابنه  
في سرداب أرضي حيث يتغنى الصبي بدواء عجيب مسحور :

يقولت - يا زهرة الزئبق البيضاء ،

يا أحلى فتاة وجدت في هريش ،

يا حلوة كالكرمة

التي تفيض بها الكأس المتبلة حلوة ؛

حدث لك في يوم من الأيام ،

أن جاء من ليموزين Limousin

حاج متعب خائف ،

يرقد من شدة الألم على فراشه ،

يتقلب ويخشى الموت حين يتنفس ،

مكئب أشد الاكتئاب ،

قاب قوسين أو أدنى من الموت .

فدخلت يا ذات الطهر والبقاء .

ومشيت بخفة حتى أبصرك الرجل العليل ،

ورفعت ذيل ثوبك المسبل ،

ورفعت الجلباب الموشى بالفراء ،

ورفعت الشعار وكشفت له بمنحة  
عن كل عضو فيك جميل .  
وحدث وقتئذ حادث عجيب ،  
فقد قام في تلك الساعة سليماً معافى ،  
وغادر فراشه ، وأمسك بيده الصليب ،  
واتجه مرة أخرى نحو بلاده العزيزة .  
يا زهرة الزئبق البيضاء الحلوة ،  
ما أحلى وقع قدميك !  
وما أحلى ضحكك وما أحلى حديثك !  
وما أجمل لعبنا معاً !  
وما أحلى قبلاتك وما ألين ملمسك !  
إن الناس كلهم لا بد مولعون بك (٥١) .

وفي هذه الأثناء تفتل زهرة الزئبق حبلاً من أغطية فراشها وتنزل به إلى  
الحديرة . وتمسك ذيل ثوبها بكلتا يديها . . . وانزلت بمنحة فوق الندى  
التراب على الكأ ، وخرجت بهذه الطريقة من الحديقة . وكان شعرها  
ذهياً ، جعلت منه غدائر حب صغيرة . وعيناها زرقاوين باسمتين ، ووجهها  
جميل يسر المرء أن يراه . لها شفتان أشد حمرة من الوردة أو الكرزة في حر  
السف ، وأسنان بيضاء صغيرة ، وثديان ناهدان يبدوان تحت ثيابها كأنهما  
رمس ، وكانت ذات خصر نحيل تكاد يداك تنطبقان عليه ، وكانت  
الأضراس التي تنكسر تحت قدميها تبدو سوداء أمام باطنهما وبشرتها .  
ألا ما أنصع بياض تلك الفتاة الحسناء (٥٢) .

، تشخذ سمها إلى نافذة سجن أوكسان ذات القضبان الحديدية وتقص خصلة  
من شعرها وتلقها إليه ، وتقسم أن حبها لا يقل عن حبه . ويرسل والدها من  
يحبها . فتفر إلى الغابات وتعيش مع الرعاة الذين يعرفون قدرها . ويظن

والد أوكسان بعد مضي فترة من الزمان أنها أصبحت بعيدة عن والده فيطلق سراحه . فيخرج أوكسان إلى الغابات ويبحث عنها وتعرضه في ذلك البحث حوادث لا تخلو من الهزل ، ثم يعثر عليها ويرددها خلته على جواده و « يقبلها وهما راكبان » . ويريدان الفرار من أبويها اللذين يتعقبانها ، فيركبان سفينة يعبران بها البحر المتوسط ؛ وينزلان في أرض بلد فيها الرجال ، ويحترب الناس بالتزاي المرح بالفاكهة . ويعتقلهما محاربون أقل من هؤلاء رقة ، ويفترقان مدى ثلاثة أعوام ، ثم يجسمان آخر الأمر مرة أخرى ؛ ويموت الوالدان الحائقان لحسن الحظ ، ويصبح أوكسان ونيقولات كونت بوكير وكننتها .

وليس في أدب فرنسا الموفور الثراء ما هو أبداع من هذه القصة .

## الفصل الثامن

### الرجوع إلى الهجاء

وكانت الفكاهة التي تخللت فصول هذه القصة توحى بأن الفرنسيين بدأوا يتخمون بالروايات الغرامية . ذلك أن أشهر قصائد العصور الوسطى - وهي القصيدة التي يعرفها من القراء أكثر ممن يعرفون المسلاة الإلهية - بدأت قصة غرامية وانتهت بأن كانت أقوى وأفحش قصيدة هجائية في التاريخ كله . وتفصيل ذلك أن جيوم ده لوريس Guillaume de Lorris (\*) ، وهو طالب صغير السن في أورليان ، كتب حوالي عام ١٢٣٧ قصيدة رمزية كان يقصد بها أن تشمل جميع فنون الحب ، وأن تكون بفضل صبغتها التجريدية نموذجاً لجميع الروايات الغرامية ونخلاصة لهذه الروايات . ولسنا نعرف عن وليم اللواري هذا William of the Loire (\*) أكثر من أنه كتب الأبيات الأولى البالغ عددها ٤٢٦٦ من رواية الوردة Roman de la rose . وهو يصور نفسه فيها يطوف في حلمه بمحديقة حب فخمة تفتح فيها كل زهرة معروفة وتشهد فيها جميع الطيور ، وتجتمع فيها أزواج سعيدة تمثل كل ما في حياة الحب من متعة ونعيم - المرح والسرور ، والأدب والجمال ، ويرقص كل زوجين اثنين من هذه المتع تحت رياسة إله الحب . ذلك دين جديد يحتوي فكرة جديدة عن الجنة تحمل فيها المرأة محل الله . وفي هذه الجنة يرى الحالم زهرة أبهى من كل ما يحيط بها من جمال ، ولكنها تحرسها ألف شوكة . وهذه الوردة هي رمز المحبوب . وتتألف من شوق بطل الرواية إلى بلوغها وقطفها قصة جميع الحملات الغرامية التي تثيرها الشهوة المكبوتة التي تثير الخيال وتغذيه . وليس في القصة كلها إنسان سوى راويها نفسه ، أما من بقي من الممثلين فيها فتجسيد

(\*) جيوم هو وليم كما يكتبه الفرنسيون . ( المترجم )

لصفات خلقية توجد في كل القصور التي يطاردها فيها الرجال النساء : المظهر الجميل ، والكبرياء ، والنمالة ، والحياء ، والثراء ، والبخل ، والحسد ، والحمول ، والنفاق ، والشباب ، والياس ، و « الفكر الحديد » نفسه - ومعنى الفكر الحديد هنا هو التذبذب . وأعجب ما في القصة أن جويوم استطاع بهذه التجريدات أن يقرض شعراً ممتعاً - ولعل سبب ذلك أن الحب أيا كان عصره وأيا كان مظهره فيه من المتعة بقدر ما في الدم من حرارة (\*) .

ومات وليم صغير السن دون أن يتم قصيدته ؛ وظل العالم أربعين عاماً حائراً لا يدري هل فعل الحب الذي أصابه كيوبد إله الحب بسهمه فأخذ يرتجف من شدة الحب ، نقول هل فعل أكثر من أن يقبل الوردية . ثم أمسك فرنسي آخر يدعى جان ده مونج Jean de Meung بالشعلة ، وبلغ بها أكثر من اثنين وعشرين ألف بيت من الشعر في قصيدة بينها وبين قصيدة وليم من البعد مثل ما بين ربلية وتينيسون Tennyson . ذلك أن مرور الجيل من الزمان قد بدل مزاج القوم ؛ وأن الروايات الغرامية قد استنفدت إلى حين كل ما عندها من حديث ، وأخذت الفلسفة تغشى بستان العقل شعر الإيمان ؛ وكانت الحروب الصليبية قد أخفقت ، وبدأ عصر الشك والهجاء . ويقول بعضهم إن جان كتب الجزء العاصف العجاج الذي أكمل به القصيدة بناء على إشارة الملك فليب الرابع الذي بعث بمحاميه المتشككين ليضحكوا في وجه البابا . وكان مولد جان كلوپنيل Jean Clopinel في مونج القائمة على شاطئ نهر اللوار حوالي عام ١٢٥٠ ، ودرس الفلسفة والأدب في باريس ، وأصبح من أعظم رجال زمانه تبخراً في العلوم . ولسنا ندري أي عامل من عوامل الشر والفساد أغراه بأن يسخر علمه ، وبغضه للكهنوتية ، واحتقاره للمرأة والروايات الغرامية ،

(\*) لا تقل ترجمة تشوسر للنصف الأول من قصيدة رواية الوردية The Romaunt

of the Rose في جمالها عن أصلها الذي كتبه وليم نفسه .

أن يسخر هذا كله ليكمل به أعظم قصيدة غرامية في الأدب كله . فقد أخذ  
چان يبسط آراءه في جميع الموضوعات من خلق العالم إلى يوم الحساب بينما  
ينتظر الحبيب المسكين في الحديقة طوال هذا الوقت ليقتطف الوردة .  
ويصوغ أبياته في شعر من نفس البحر ذى الثمانية المقاطع والقافية الواحدة  
في كل بيتين كالذى صاغ فيه ولیم قصيدته ، ولكنه بما فيه من حماسة  
وطرب بعيد كل البعد عن أشعار ولیم الحاملة . وإذا كان قد بقي في قلب  
چان شيء من الغرام فقد كان ذلك هو صورة أفلاطون الخيالية للعصر الذهبي  
في الماضي « لا يقول أحد فيه إن هذا الشيء أو ذاك ملك له ، ولا يعرف  
فيه الناس الشهوات أو السلب والنهب » ، ولم يكن فيه سادة إقطاعيون ،  
ولا دولة ، ولا قانون ، يعيش الناس فيه دون أن يأكلوا اللحم أو السمك  
أو الطير ، و « تكون فيه جميع خيرات الأرض ما كما مشاعاً بينهم » (٥٣) .  
وليس چان متحرراً من الدين ، فهو يقبل عقائد الكنيسة دون أن يحط من  
قدرها ، ولكنه يبغض « أولئك الفجار البدن المترفين ، والإخوان  
المتسولين ، الذين يخذعون الناس بالألفاظ الكاذبة ، ويمألون بطونهم باللحم  
والشراب » (٥٤) وهو لا يطيق المنافقين ، ويوصيهم بأكل البصل والثوم  
لييسر لهم أن يذرفوا دموع التماسيح (٥٥) . ويقر بأن « حب امرأة ظريفة ،  
خير ما في الحياة من نعم ، ولكن يبدو أنه لم يتذوق قط هذه النعمة » (٥٦) ،  
ولعله لم يكن خليقاً بأن يتذوقها لأن الهجاء لم يكن قط طريق كسب فتاة  
حسنة ؛ ولأن چان كان شديد التأثر بأوقد ، وقد تتلمذ عليه إلى حد جعله  
يفكر في وسائل الانتفاع بالنساء ، ويعلم غيره هذه الوسائل ، أكثر  
مما يحسن . وهو يجهر بأن الاقتصار على زوجة واحدة سخف ، لأن الطبيعة  
قد أعدت الكل لكل - كل النساء لكل الرجال . وهو ينطق الرجل  
المشبع بهذه الأبيات بوثب بها زوجته المزدانة :

وماذا تجدى هذه المظاهر كلها ؟  
وأى نفع يعود على من الأثواب الغالية وهذه الحلل ذات القطع  
الشاذ الغريب ؟

وماذا يعنى من هذه العصائب التى تلوين بها شعرك وتعصينه ،  
وتجدلينه بخيوط من الذهب ؟ ولماذا تطعمين بالعاج  
مرايا مرصعة بالميناء ، منشورة عليها دوائر ذهبية ؟  
وما شأن هذه الجواهر الخليقة بتيجان الملوك ،  
لؤلؤ وياقوت أحمر وأزرق جميل ، يبعث فيك الغرور الجنونى  
الممقوت ؟

وما جدوى هذه الأقمشة الغالية !  
والطيات المثناة المجدولة ، والمناطق التى تطوقين بها خصرك .  
محلة ومزدانة بالنقوش الكثيرة ؟  
ثم قولى لم تختارين أن تلبسى فى قدميك حذاءين ملتصعين  
إلا إذا كنت تشهين أن تكشفى عن ساقيك الجميلتين ؟  
قسما بالقديس ثيبو Thibaud لأيعن هذه الأشياء الغثة  
قبل أن تمضى من هذا الوقت ثلاثة أيام ، ولأنبذتك نبذ الثوب  
الخلق ! (٥٧)

وإننا لتجد بعض السلوى حين تعرف أن إله الحب يهاجم فى آخر الأمر ،  
على رأس أتباعه الذين يخططهم الحصر ، البرج الذى يقوم فيه الخطر ، والحياء ،  
والخوف (تردد السيدة) بحراسة الوردة ، ويُدخِلُ الترحاب الحبيب إلى الكعبة  
الداخلية ويتركه يقتطف أمل أحلامه . ولكن ألهذه الخاتمة الغرامية التى طال  
انتظارها أن تمحو ١٨٠٠٠ بيت من الواقعة الفظة والبذاءة الساخرة ؟  
وكان أكثر ما يقبل الناس على قراءته فى أوروبا الغربية فى القرنين الثانى  
عشر والثالث عشر كتب ثلاثة هى رواية الوردة ، والقصة الذهبية ، وريبتار

الثعلب . وبدأت قصة Reynard باللاتينية في إيسنجرينس Ysingrinus حوالي عام ١١٥٠ ثم انتقلت منها إلى عدة لغات قومية بأسماء مختلفة Roman de Renart ، Reynard the Fox ، Reineke de Vos ، Reinaert ، وانتهى تطوُّرها برواية Reineke Fuchs بلحيته . وأضاف مؤلفون مختلفون نحو ثلاثين قصة مرحة لهذه السلسلة حتى بلغ مجموعها ٢٤٠٠٠ بيت خصصت كلها تقريباً لهجاء الإساليب الإقطاعية ، وحاشية الملوك ، والاحتفالات المسيحية ، والعيوب الآدمية على لسان الحيوان .

ويحتال رينال الثعلب حيلة شيطانية على الأسد نوبل Noble ( الشريف ) ملك الدولة ، ويُعظّر درع نوبل بالسيدة هاروج Dame Haroug الفهدة ، وينصب لها من الدسائس ما لا يقل عن دسائس تليران Tallyrand حتى ترضى أن تكون عشيقته . ويسترضى نوبل وغيره من الوحوش بأن يهب كلامها طلسماً يبنى الزوج بخيانات زوجته . وبهذه الطريقة تنكشف مخازر هيبية ، ويضرب الأزواج زوجاتهم الخائنات ، فتفر الزوجات ويحتمين برنار فيتخذهن جميعاً حريماً له . وتقول إحدى القصص إن الحيوانات تشبك في ألعاب الفروسية ، وتبدو بأثواب الفرسان الزاهية في استعراض رائع . وترى الثعلب في قصة رينار الميت La Mort Renart يحتضر ؛ ويقبل برنار Bernard الحمار كبير أساقفة الحاشية ليقوم له بالمراسم الدينية ، ويخاطبه بلغة توفى على الغاية في العاطفة والإخلاص ، ويتصنع منتهى الجلد والوقار . ويعترف رينار بذنوبه ، ولكنه يشترط إذا شئ من مرضه أن يصبح في حل من يمينه غير مقيد بها . وتدل المظاهر كلها على أنه مات ، وتجتمع كل الوحوش الكثيرة العدد التي خانها في زوجاتها ، أو ضربها ، أو مزق لحمها ، أو خدعها ، تتظاهر بحزنها ، ولكنها في خبيثة أمرها سعيدة بموته . ويلقى كبير الأساقفة على قبر الميت عظة شبيهة بأقوال ربلية ، ويلوم رينار لأنه كان يرى « أن كل شيء حسن إذا استطعت أن

تستحوذ عليه ، . ولكن زينار تدب فيه الحياة حين يرش عليه الماء المقدس ، ويقبض على عُنق شانتكلير (الدبك) وهو يطوح بالمبخرة ، ويخرج إلى الغابة بفريسته . وبعد فإذا أراد الإنسان أن يفهم العصور الوسطى على حقيقتها فعليه ألا ينسى زينار .

ذلك أن قصة زينار أعظم القصص الخرافية التي تروى على لسان الحيوان لهجاء الإنسان . وكانت هذه القصص عادة تكتب بالشعر ذي الثمانية الأوتاد ، ويتراوح طولها بين ثلاثين بيتاً وألف بيت ، ومنها ما هو قديم يرجع إلى عهد إيسوب Aesop أو إلى أقدم من عهده ، وجاء بعضها من بلاد الهند عن طريق المسلمين . وكان أكثره قذفاً في حق النساء أو القسيسين ، يحسد النساء على ما حبتن الطبيعة من سلطان ، والقسيسين على ما لهم من قوى غير طبيعية ؛ يضاف إلى هذا أن النساء والقساوسة قد عابوا على المغنين تلاوة القصص الخرافية الشائنة . ذلك أن الخرافات كانت تتجه على الدوام لأصحاب البطون القوية ، وتستخدم لغة الحانات والمواخير ، وصاغت آلافاً من الفكاهات شعراً . ولكن تشوسر ، وبوكاشيو ، وأريستو Ariosto ، ولافتين ، ومائة غيرهم من القصاصين استمدوا من معينها الفياض كثيراً من القصص المثيرة للدهشة .

وكانت نهضة الشعر الهجائي سبباً في انحطاط منزلة الشعر الغنائي . واشتق الشعراء المغنون الجوالون اسمهم Minstrels الإنجليزي من لفظ Ministeriales ، وهم في الأصل نخدم في حاشية البارونات ، اشتقوا اسمهم الفرنسي Jonglens من اللفظ اللاتيني ioculator أي صاحب النكات . وقد قام هؤلاء بوظيفة شعراء اليونان البوارين والماجنيين الرومان ، وشعراء اسكنديناوة القدماء ، والمغنين الإنجليسكسون ، وشعراء ويلز وأيرلندة المداحين . وكان المغنون حين بلغت الروايات الغنائية قمة مجدها في القرن الثاني عشر يقومون بمقام الطباعة في هذه الأيام ؛ وقد احتفظوا بمكانتهم بما كانوا يروونه أحياناً من القصص الخليفة بأن

تسمى أدباً . فكان الواحد منهم يمسك بقيثارة أو الكمان الكبيرة وينشد الأغاني أو القصص القصيرة ، أو الملاحم ، أو قصص مريم أو القديسين ، وأغاني أعمال الأبطال ، والروايات الغرامية أو خرافات الحيوانات (\*) .

وإذا حل موسم الصوم الكبير ، وقل عليهم الطلب ، عقدوا إذا استطاعوا مؤتمراً للمغنين والماجنين كالمؤتمر الذي نعرف أنه عقد حوالي عام ١٠٠٠ ؛ وفيه يتعلم بعضهم ما عند البعض الآخر من حيل وأساليب ، وما عند شعراء الفروسية الغزلين والقصاصين من أغان وقصص جديدة . ومنهم من كان يرضى ، إذا تبين أن أقواله ذات طابع عقلي أقوى مما يطيقه المستمعون ، أن يسلوهم بالشعوذة ، والألعاب البهلوانية ، وثني الأجسام ، والمشى على الحبال . ولما أخذ القصاصون يتنقلون في المدن يروون أقاصيصهم ، ولما انتشرت عادة القراءة وقل الطلب على القصاصين ، تحول المغني الجائل تدريجاً إلى ممثل للمهازل ذات الأغاني والرقص ، وأصبح المغني في واقع الأمر مشعوذاً ، يقذف بالسكاكين ، ويحرك الدمى ، ويعرض ألعاب الدببة المدربة ، والقردة ، والخيل ، والديكة ، والكلاب ، والجمال ، والآساد . ومن المغنين من حول خرافات الحيوانات إلى روايات هزلية ، ومثلها دون أن يمحوا ما فيها من فحش . وقاومت الكنيسة شيئاً فشيئاً هذه الطائفة ، وحرمت على الصالحين الاستماع إلى أفرادها ، وعلى الملوك أن يطعموهم ، وكان هونوريوس أسقف أوتون Autun يرى أن أحداً من أولئك المغنين أو القصاصين لن يدخل الجنة .

وكان حب الشعوب لأولئك المغنين والقصاصين ورواة خرافات الحيوانات ، والترحيب بالصاحب الذي لقيته ملحمة چان ده مونج عن الطبقة الوسطى

---

(\*) ما أشبه هؤلاء « بالشعراء » الذين ينشدون على الربابة قصص أبي زيد الهلالي وغيره من الأبطال والذين أخذوا مع الأسف الشديد ينقرضون في هذه الأيام . ( المترجم )

bourgeoisie من الطبقات المتعلمة الجديدة وطلبة الجامعات المتمردين ؛  
كان هذا خاتمة ذلك العصر . نعم إن الروايات الغرامية ظلت باقية ،  
ولكنها كانت تتحداها من كل ناحية القصائد الهجائية ، والفكاهات ،  
والمزاج الدنيوى الواقعى الذى يسخر من قصص الفروسية قبل أن يولد  
سرفتير Cervantes بزمن طويل . وظل الهجاء قرناً كاملاً من ذلك  
الوقت هو المسيطر على الميدان ، يقرض بأنبياءه قلب الإيمان ، حتى  
تزعزت جميع دعائم صرح العصور الوسطى ، وتحطمت أضلاعه ،  
وتركت نفس الإنسان مزهوة تترنج على حافة العقل .